89278
Sh562dA
c.2

توفيق حسن الشرتوني

دموع الوفاء

بين الاشلاء والدماء

رواية

تجري حوادثها خلال الحرب العالمية الاخيرة

67694

١٩٤٧

مطابع صادر ريحاني ، بيروت ، لبنان – تلفون ٦٢ - ٦٨

Copyright Author, Cat. Mar. 1948

اهداء الكتاب

الى اخواني المغتربين اللبنانيين، المشتتين تحت كل سماء، اهدي كتابي هذا: فهو يعبّر تعبيراً صادقاً عما يجيش في صدورهم من خالص الوجد والحنين، نحو وطنهم لبنان، مهما بعدت بهم الشقة، وطال امد الغربة. ويعرب اعراباً صحيحاً عما تكنه نفوسهم، من شدة الوفاء والاخلاص، لمختلف الاقطار التي اتخذوها موطناً لهم

فهم في كل ظرف عصيب، لا يضنّون باموالهم، ولا بارواحهم، في سبيل الذود عن حياض اوطانهم الجديدة، والدفاع عن حريتها و كرامتها

والحرب العالميّة الاخيرة التي خاضوا غمارها، تشهد لهم على انهم لا يقلّون وطنية عن اخلص الوطنيين في اوطانهم الجديدة. ولا يقصرون عن غلاة المتخلّفين في حبهم للبنان وتعلقهم به. لا بل يزيدونهم حيوية واندفاعاً في المحافظة على كيانه، والعمل لاعلاء شأنه في اطراف المعمور

١٥ حزيران سنة ١٩٤٧

توفيق حسن السرنوبي

الوداع

كانت في مكتب زوجها تتصفح جرائد الصباح، وهو مكبٌّ على تحبير مذكراته عن الحرب، عندما طرق بابها فقامت تفتحه، فرأت على رتاجه، بعض رفيقاتها في الدراسة، جئن لتهنئتها بزفافها الميمون، وبسلامة رجوعها من ميادين الحرب.

فاستقبلتهن بكل ترحاب في ردهتها الخاصة. وجاء زوجها على الأثر وحياهنّ تحية رقيقة، وعاد الى عمله. ثم اخذن يسألنها عما جرى لها في اوروبا، وما الذي اهاب بها وهي وحيدة ابويها وربيبة الترف والدلال للتطوع في مبرة الصليب الاحمر، متحمّلة شظف العيش، وافدح المخاطر، في ساحات القتال.

فشرعت تعرض قصتها عليهنّ راوية باسهاب ما حداها على التطوع، وما جرى لها من الحوادث والمفاجآت خلال الحرب. قالت:

في صبيحة رأس السنة عام ١٩٤١ جاءني خطيبي اميل لابساً بزة عسكرية يزهو بها، ويبدو فيها كأنه زاد جمالاً على جماله، واباء على ابائه. وكان يحمل في يده اليمنى خاتماً ماسياً ومحبساً مرصّعاً وضعها في اصبعي قائلاً: هذه الهدية التي اقدمها لك، في هذا العيد، هي رمز

لارتباط قلبينا واتحاد جسدينا ما دمنا في قيد الحياة ... ثم أردف وغداً تبحر فرقتي الى اوروبا للمساهمة في هذه الحرب دفاعاً عن الوطن، ولم يبق لي في موتتريال سوى هذا اليوم، اود ان اصرفه بينك وبين ابوي واخوي الصغيرين . فأتغدى معك بين رهطك، وتتعشين معي بين اهلي.

فدخلت توًا غرفة امي اعلمها بمجيئه وبكل ما اسره اليّ، فارتدت ثيابها وجاءت تستقبله بعطف متمنية له ان تكلأه العناية الالهية من كل شر وتعضده للقيام بخدمة وطنه على اكمل وجه .

ثم طلبت منا ان نرافقها الى الكنيسة، حيث كان ابي قد سبقها اليها، لنشترك معاً بالصلاة في هذا العيد، مبتهلين اليه تعالى بان ينصر كندا وحلفاءها الميامين على اعداء الحق والديموقراطية .

وهناك في بيت الله، وفي قدس اقداسه تعاهدت واميل على الوفاء في الحب، وعلى الاقتران في نهاية هذه الحرب .

عدنا جميعنا الى البيت، فالفينا فيه بعض الاقرباء الذين جاؤوا لتهنئتنا في العيد .

فجلس والداي معهم في قاعة الاستقبال. اما انا وخطيبي فقد انفردنا في المكتب الى ميعاد الغداء .

ساعتان صرفتهما بقربه في تلك الغرفة، مرّتا مرور البرق، غير ان وقعهما قد انطبع في مخيلتي انطباعاً وغمر قلبي غمراً، مع اننا لم نتجاذب حديثا يشف عن معنى يستحق الترداد، بل كان الفاظا متقطعة، لا انسياق بينها، لكنها في جملتها تنمّ على تقديس الحب وتأليه الوفاء .

غير ان الدموع التي انهمرت عفواً على خدينا خلال ذلك الاجتماع ، كانت افصح منا تعبيراً عن وهج حبنا ووحشة فراقنا

وفي آبان الغداء ، قال لي ابي عندما رآني حزينة شديدة التأثر : هنيئا لك بنيّتي بخطيبك ، فهو شاب مثقف مقدام ، ووطني جري ، صادق ، وبلادنا اليوم احوج منك الى ساعديه المفتولين ، وقلبه الكبير ، وروحه الوثابة .

وغداً عندما يعود من الحرب تتكللين عليه ، بعد ان يفسح لك في جهاده الشريف مجالا واسعا للاعتزاز به والافتخار ببطولته

فوقع كلام والدي من نفسي موقعا مرضيا ، فتصلّب قلبي واشتد عزمي : فقلت لخطيبي : اذهب بامان الله ، وكن رجلا كما اعهدك ، قوي الشكيمة في الحرب ، ملبّيا نداء الوطن في الملمات . وكن واثقاً بمحبتي ووفائي الى ان يقبضني الله اليه او يجمعني بك مكللا با كليل الغار .

فانفجرت اسارير خطيبي واجابني : لقد زادني كلامك شجاعة ، وملأني عزماً ، وغمرني نشوة . فانا ذاهب الى الحرب مزوداً منك بافخر زاد تقدمه فتاة الى حبيبها في مثل هذه الظروف . فهو زاد يحيي نفسي ، ويبعث فيها روح الاقدام والتفاني في سبيل واجبي المقدسين — واجب حبك وواجب وطني العزيز .

وفي الحال انقلب جو المائدة من التجهم الى الصفاء وعادت الابتسامات الى الوجوه المربدة ، واخذ المرح يسيطر على قلوبنا ومشاعرنا فرشفنا جميعنا خمرة العيد وشربنا نخب جنودنا البواسل وانشدنا

اغنية النصر .

وفي المساء ذهبنا الى منزله لتناول طعام العشاء، فألفينا والدته تنشج، غير انها تجلدت عندما رأتنا داخلين عليها، ورحبت بمقدمنا متكلفة الابتسام امامنا .

اما والده فاستقبلنا ببشاشته المعهودة ، وخلقه الهادىء الرصين ، وسمته الوقور ، ولطفه المعتاد ، كأنه لا يحفل بالغد الذي سيسلخ عنه فلذة كبده ويزجه في اتون الحرب .

واخذ المدعوون للعشاء من اقرباء خطيبي واصدقائه يتوافدون لمشاركة اسرته في ليلة وداعه.

ولما اكتمل عقدهم جلسنا الى خوان غني بالوان الطعام والشراب وبانواع الحلويات والفاكهة . ولا ابالغ اذا قلت : انه لم يكن عشاء مألوفاً ، بل مأدبة من افخم المآدب ، تضم نخبة من اعرق الاسر محتداً . ومن انقاها ادباً ، واصفاها ذوقاً ، واغناها اناقة وظرفاً .

وكان خطيبي وحده مرتدياً لباس الجنود بين هذا الحفل الزاهي بافخر الملابس . غير انه على الرغم من بساطة مظهره ، كان يبدو بينهم كأنه البدر بين النجوم ، والوردة بين الازهار .

وافتتح والده الحديث على المائدة فقال بعد كلام الترحيب :

كلوا واشربوا هنيئاً مريئاً ، وارقصوا وغنوا ، ودعوا المرح يتملك نفوسكم والبهجة تغمر افئدتكم . فهذه المأدبة ليست مأدبة وداع تبعث الجزع في النفوس . بل مأدبة ترمز الى بطولة شبابنا ودفاعهم المجيد عن بلادنا وامبراطوريتنا المهدّدة . فلنشرب معاً نخب جنودنا

البواسل الذين يمثلهم بيننا هـذا الجندي الذي جعلني اليوم في عداد الآباء الكنديين الذين يفاخرون بابنائهم الاشاوس الزائدين عن حياض الوطن .

ثم انتصب خطيبي قائلا: مرحى للغد، انه يوم الشباب الذي لا يحنون رؤوسهم لغير الله، ولا يتلكأون عن بذل ارواحهم في سبيل الحق والحرية والكرامة الوطنية .

ثم شرع يهزج اهازيج الحرب، بصوت جهوري آخاذ يثير الهمم الراكدة، ويحرك النفوس الراقدة. وكنا نحن الحاضرين نردد ازجاله واغانيه، بصدور تشتعل حماسة وقلوب تتقد اخلاصاً .

لقد اظهر في تلك الليلة من ضروب الهوس والاندفاع ما جعلني اتخيله بطلا من ابطال الاساطير متقمصا روح اله الحرب، يدوس الارض برجليه، ويطال السماء بيديه، ويمتطي افراس النور، ويتنقّل على ظهورها، من نصر الى نصر بين اطباق الشموس والكواكب .

فعظم شأنه في عيني، وزاد حبه في قلبي حتى بلغ مبلغ العبادة

ولا عجب في ذلك ولا استغراب، فالمرأة في مزاجها الانثوي تعشق الظرف في الرجال، وفي عنصرها الروحي تعبد فيهم البطولة .

وكان اميل يتدفق جمالا ممزوجا بصلابة العضل، وظرفاً مقروناً بالبطولة ورقة الشمائل. صوته زمجرة اسد في الغاب، غير انه شهي السمع شجي الجرس والرنين . وعيناه تتلألأن سناء بالنور وتتقدان وهجا كالنار. وحركاته وسكناته كلها تدل على خلقٍ متين وارادة لا تقهر .

وبعد العشاء جلسنا في بهو المنزل نتجاذب الاحاديث ونتناوب العزف على الناي والكمان، ونتبادل الرقص والغناء الى ما بعد منتصف الليل.

كانت والحق يقال سهرة حافلة بالانس والمرح على الرغم مما كان يشوبها من منغصات الوداع، ومما كان يتخللها من قطرات الدمع التي كانت تنساب بين الفينة والفينة على وجه والدته ووجهي، حتى ان بعضها كانت تبرز فجأة من مكمنها وتقفز قفزاً من المآقي كما يقفز على الارض ذبيح سخين الدماء.

وكنا نحن الاثنين نبذل قصارى جهدنا لنتمكن من صدها وحبسها في مطاوي الاحداق، غير ان الفشل كان حليفنا، لان عاطفة الامومة كانت تطغي على ارادة الأم فتغلبها على امرها، وسعير الحب كان يسحق ارادتي ويحرقها بلهيبه.

اما خطيبي فكانت ارادته الفولاذية تحبس دموعه في محجريه، وتلجم عواطفه في اصغريه، وتغمر محياه بمظاهر الانفة والبشر وطمانينة النفس.

انقضت السهرة وذهب المدعوون، وكنت آخر من ودعه على رتاج منزله. بعد ان اخذت منه عهداً بان يعودني في صباح الغد مستأذنا لي من القيادة بمرافقته الى الثكنة العسكرية والسماح لي ايضا بوداعه على ظهر الباخرة التي تقلّه الى ميدان الحرب.

وفي الغد جاءني مودعاً وقال لي: انه لم يتمكن من معرفة ساعة ابحاره، لانها سر من اسرار الحرب لا تبوح القيادة به. وكل ما تبلّغه الا يتخلّف عن فرقته، وان يكون مجهّزاً للابحار عند صدور الاوامر

ولهذا يستحيل عليّ مرافقته الى الشكنة ووداعه في السفينة. فاجبته وانا اشهق بالبكاء: آه كم اتمنى ان اودعك في المركب والوّح لك من الشاطىء بيديّ المرتجفتين، واظل شاخصة اليك بعينيّ الدامعتين الى ان تحجبك عني الامواج، وتطوي سفينتك اتياج اليمّ وتغيبها عن ثغرنا الجميل وبلادنا العزيزة. فاتيت تجابهني باسم القيادة برفض امنيتي الوحيدة، سامحك الله وحفظك من كل مكروه.

فاجابني: امنيّتك هذه هي امنيتي الغالية ولكن لا طاقة لي على تنفيذها. فانا جندي مأمور لا قائد يصدر الاوامر. ثم طلب مني مقابلة والديّ فدخل عليهما وودعهما وداعاً حاراً، وانثنى اليّ فرآني كسيرة القلب واهية النفس فقال لي: اريد منك وداعاً مقروناً باشراق الوجه وابتسامة الثغر ومغموراً بانبساط القلب وشجاعة الروح لا وداعاً مغموساً بالاسى والدموع، ومجبولا بالخوف والتجهم

فمسحت في الحال دموعي، وطويت المي في اعماق نفسي وتكلفت امامه الابتسام. فودعته كما يشاء طاقة الوجه وضاحة المحيا.

ولما غاب عن ناظريّ، اطلقت لنفسي العنان فهامت في بيداء الوحشة وغاصت في وادي الالم والدموع.

في ميدان الحرب

وبعد ايام تحقّقت سفره دون ان اعلم الى اين تتجه فرقته، أالى انكلترا، ام الى مصر، ام الى الهند.

لقد كنت كثيرة الهواجس والاضطراب لشدة قلقي على حياته من جرّاء ما كنت اقرأه في الصحف، واسمعه في المذياع، من وفرة عدد الغواصات الجرمانية في محيطنا الاطلسي، وشدة بطشها بقوافلنا البحرية ونسفها مراكبنا الزاخرة بالجنود.

ولما ابرق اليّ معلناً وصوله الى لندن، زاد خوفي عليه بسبب طائرات العدو التي كانت تنقض على بريطانيا ليل نهار، وتمطرها وابل القذائف وصواريخ النار، فتحرق اراضيها وتدك ابراجها ومبانيها، وتفتك بسكانها الآمنين، وتدع منازلهم انقاضاً مكدسة فوق جثثهم، مما لا تقوى الغوّاصات على الاتيان بمثله، مهما بلغت من القوة والعتاد، وبالغت في البأس والجهاد، لان ميدانها محدود، وميدان الطائرات غير محدود، يشمل البر والبحر وكل زاوية من زوايا الارض.

فاعتراني الشحوب والهزال من تفاقم الهواجس وقلق البال، وانتابني صداع اجهز على اعصابي فزادها توتراً وايلاماً، وضاعفت سويداء قلبي ظلاماً. فأويت فراشي منهوكة القوى معلولة الجسد والروح.

فجاءني طبيب الاسرة فاحصاً. ولما عرف اسباب علّتي، نصح ابويّ بان ينقلاني من المدينة الى الريف لتبديل الهواء والاستجمام من عناء الذكريات.

فاخذاني حالا الى مزرعتنا الكائنة بجوار المدينة. وهناك كانت امي تغدق عليّ نصائحها القيّمة وترمقني بكامل عطفها. وكان ابي يذهب الى عمله في النهار، ويعود في المساء متأبطاً مختلف الهدايا التي كان ينثرها على فراشي غبّ وصوله. وكان دائماً يعللني برجوع خطيبي، ويتنبأ لي بمستقبل مجيد.

ولن انسى ما قاله لي مرة: اغتبطي بخطيبك الذي آثر وطنه على نفسه، فكفر بالانانية والخوف ومضى بعيداً يحارب العدو المجتاح ليرد عن ارضنا غائلة اثمه وطغيانه.

فهل تؤثرين نفسك على وطنك، وتودين بقاء خطيبك قابعاً في جوارك، تاركا بلاده العزيزة مهددة بالعبودية والخراب، دون ان تستفزه حمية، وتدفعه نخوة، ويغلي في عروقه دم. فهل تحبينه تمثالا بارداً كالرخام لا حرارة في صدره ولا اقدام في جنانه.

فارعويت لنصائح والدي، وسلمت امري لله متوسلة اليه بان يحفظ حبيبي ويدرأ عنه اخطار الحرب.

وبدأت اتحرر من الاضطرابات النفسية، لاقتناعي التام باندفاع خطيبي في تأدية واجبه المقدس نحو وطنه — هذا الواجب الذي لا مفرّ منه لصيانة بلادنا وامبراطوريتنا.

ورجعت الى المدينة هادئة الاعصاب، ارتاد انديتها ومسارحها

كالمعتاد، وازهو امام رفيقاتي بالوطنية المثلى التي يتصّف بها خطيبي، وبالشجاعة النادرة التي يتحلّى بها.

وفي عصارى يوم ممطر شديد القر، بينا كنت جالسة حيال المدفأة اطالع كتاب النبيّ لجبران — هذه القلادة الروحية النفيسة التي صاغها فقيد الادب اللبناني بين صخب الآلات وضجيج المركبات، في مدينة نيويورك العظمى التي يقدس اهلها العبقرية المادية في دوائر الاعمال، ويعبدون صنم المال. دخل عليّ الساعي بكتاب وانا مأخوذة بسحر المؤلف في وصف المحبة وتشريحها، ومشدوهة بوداعة روحه وسمو خياله. ففضضت الرسالة فاذا هي من خطيبي، بعث بها اليّ من عاصمة مصر قاعدة الفراعنة ومجلى العروبة وها هي بحذافيرها:

عزيزتي:

لا شيء في ميدان القتال يملا فراغ قلبي غير ذكرك العطر، ولا شيء يسليني بين زئير الدبابات، وازيز القانصات، ولعلعة المدافع، غير ذخيرتك المقدسة التي تتدلى على صدري حاملة رسمك الكريم. فهي التي تسدّد خطاي وتشدد عزمي وتحفظني من المكاره.

منذ اربعة اشهر ونيف التحقت بالفرق المصفّحة في جيش الشرق الاوسط. وقد خضت حتى الان عدة معارك في صحراء مصر وليبيا، كنت فيها حائزاً على ثقة اوليائي لتفوقي في الشجاعة وحسن الرماية، ولدرايتي في اعداد الآلات الميكانيكية وقيادة الدبابات.

والحرب اليوم ياعزيزتي حرب آلية خاطفة تمثّل فيها الطائرات والمصفّحات اعظم الادوار واهمها.

لقد كنت في مقدمة الهاجمين على ثغر طبرق الحصين، واول الداخلين اليه في دبابتي بعد قتال عنيف، فمنحت شارة وضعها القائد على صدري في ساحة المدينة.

اما الصحراء التي قطعتها في مقدمة الجيش، فهي عبارة عن قفر شاسع فسيح الارجاء، لا تقع فيه العين الا على فلوات هائلة عديمة الحياة، تتلوها فلوات اكثر من الجحيم هولاً، ولا يتبين فيها ايضاً غير كثبان مترامية الآفاق، تتبلور رمالها في وهج الشمس، وتتماوج ظلالها على اضواء القمر، فتكوي بحرّها في الهاجرة، وتلذع بقرها في زحمة الليل. تعقبها كثبانٌ هوج تتطاير وتتقاذف في الفضاء كأنها بركان ثائر تتصاعد حممه في الجو ثم تتساقط على الارض تساقط الرجم.

لقد كانت تلك الكثبان الثائرة اشد وبالا علينا من وطأة قنابل الاعداء وقذائف قناصاتهم. والويل فيها لمن ضل السبيل. فلن يعثر عليه. ولمن تاه عن القبيل فلن يهتدي اليه. فيقضي جوعاً وعطشاً وتمسي بقاياه كالدمى تلعب بها السافيات. وتذريها في تلك المهامه كما تذري الرمال.

وعلى الرغم من هذا كله، لم اشعر بذرة من الوجل عند اجتيازي الصحراء الموحشة فقد عبرتها مع الفرق الآلية اتعقب العدو كما يعبر الاسد الذي يتعقب فريسته. وكنت كلما تغلغلت في مفازاتها المهيبة اشعر باللذة التي يشعر بها السائح كلما دخل بلداً جديداً، وشاهد امامه عالما جديداً. والصحراء كانت لي بمثابة عالم جديد، لان عينيّ لم تكتحلا برؤية كثبانها ومفاوزها قبل اليوم.

اما مصر التي قدّر لي ان اقضي فيها فرصة الاستراحة فهي بلاد قديمة تطوي في احشائها اقدم مدنية عرفها الناس. فآثارها الفرعونية هي بلا جدال اعظم تراث مخلّد ورثه البشر عن الغابرين.

فالاهرام وحدها عظمة لا تعلوها عظمة، وبقايا القبور والهياكل تحف نادرة لا يضاهيها بقايا. ومخلفات العرب جمة جليلة الشأن، ادهشني فيها ضخم المساجد، وبديع المآذن ورائع الاعمدة والمحاريب. فهي نسيج عبقري في عالم البناء والفن.

هذه نظرة اجمالية وددت ان احيطك علما بها على سبيل الالمام بما تكنه ارض مصر من عجائب بقايا الانسان الغابر.

ويا حبذا لو كان لديّ متسع من الوقت لصرفته بين تلك الجدر والانقاض باحثاً منقباً عن الحضارات التي سبقت التاريخ وطويت في احشاء الارض، كما تطوى الافكار في ثنايا الاوراق. لكنني هبطت مصر لاخوض ميدان الحرب لا ميدان علم الآثار.

اما القاهرة عاصمة مصر اليوم فهي مدينة ضخمة عصرية الطراز، أنيقة المباني؛ فسيحة الشوارع والجادات عدا قسم ضئيل منها لا يزال على كيانه القديم يحمل طابعاً شرقيا بأبنيته المتواضعة، وشوارعه الضيقة. غير انه ينعم ببضعة أبنية اثرية تستحق الاعجاب والتقدير.

ومما لا ريب فيه، ان هذه العاصمة لا تقل شأناً عن عواصم العالم المتمدن في سعة عمرانها. فهي تضم بين جوانحها احدث الجامعات والمتاحف، واجمل القصور والدور وابهج المسارح والملاهي؛ وأكمل الفنادق والحدائق. يتوسطها نهر النيل ابعد انهر العالم مدى، واوسعها

انتشاراً. ويسرح في ارباضها متلألئاً بذهبياته الفضفاضة الشراع الراسية على ضفتيه والمتبخرة في عبابه .

فهو لعمري يسبغ على هذه المدينة جمالاً وجلالا يأخذان بمجامع القلب واللبّ، ويحيطها بهالات نورانية غريبة اللون والظلال، تبدو كأنها قبسٌ من انوار الآلهة القدامى تتماوج فيه ظلال ارواحهم .

انني لسعيدٌ بوجودي في هذه العاصمة التي يتكلم اهلها اللغة العربية التي ناغتني بها امّي وانا في الاقطة، ودغدغتني بحلاوة الفاظها وانا في اشراق الطفولة فتمتمت. بها أول ما تمتمت، وثطقت بمخارج حروفها اول ما نطقت، غير انني ترعرعت بعيداً عنها، ففاتني ادراك فهمها وتجويد النطق بها . فبدأت اليوم اتعلمها في مصر على رغم صعوبتها محافظة على تراث اسرتي القديم، ودوام اتصال ماضيها التليد بحاضرها الطريف .

لم تتيسّر لي زيارة لبنان في هذه الفرصة القصيرة . فعسى ان اتمكن من ذلك في اجازتي الثانية، فاشاهد الجبل الذي ابصرت فيه النور، وتركته رضيعاً على صدر امّي، وبين ذراعيّ ابي . غير ان الحظ ساعدني لاتعرّف الى بعض اللبنانيين النازلين مصر . انهم قوم على جانبٍ عظيم من الثقافة ونبل الاخلاق . لقد غمروني حقاً بفضلهم و كرمهم، ودعوني مراراً مع رفاقي الجنود الى ناديهم، و كانوا يتسابقون الى ضيافتنا وتكريمنا، ويعطفون علينا عطف ذوي الارحام، حتى ان احد رفاقي الجنود وهو من مدينة كباك قال لي : هنيئاً لك بلبنان وباللبنانيين .

وفي احدى المآدب التي اقاموها لنا، تعرّفت الى بعض المدعوين من جنود امير كا الذين هم مثلي من اصل لبناني.

فاشتدت اواصر صداقتنا في الحال، لارتباطها برباط الوطن القديم. وكم اشتهيت أن تكوني حاضرة هذه المأدبة الفخمة التي تضاهي بشهى طعامها، وتنوّع الوانها، وشعاع راحها واهازيج ناسها مآدب عيد الميلاد.

لقد زادني لبنانيو مصر محبة للبنان، وتعلّقاً باهله. وزادوني رغبةً وحنيناً لزيارة ربوعه، وجعلوني افخر بلبنان كما افخر بكندا التي هي احد كواكب امبراطوريتنا التي لا تغيب عنها الشمس.

وانت ايضاً تمتّين بصلة الى لبنان، ولو كنتِ كنديّةً اصيلة الموطن والمولد. فدم والدك المهاجر اللبناني يسري في عروقك ممتزجاً بدماء والدتك الكندية الفرنسية الاصل.

لقد جبلك الله من خمرة معتّقة مثلثة الاقانيم، كل اقنوم يزهو بشعاعه الخاص، ويؤلّف مجموعاً فاتناً ساحراً. فسنا لحاظك المعسولة من راح لبنان، ورشاقة روحك الخالبة من كرمة فرنسا، ونصاعة وجهك المشرب بالورد من ثلوج كندا وجنانها العابقة بالاريج.

اما خلقك النبيل فهو نفحةٌ من نفحات الله. فتوسلي اليهِ تعالى، يا اطهر نفحاته، كي يحجب دماء خلقه، وينصر حلفاء الحق على حلفاء الباطل. ويجمعنا معاً في مهد الحب وكنف الاهل...

هذه هي رسالته الاولى الممتعة، تلوتها مراراً لا بل مئات المرار... وكم وقفت اتلمّظ بكل كلمة من كلماتها، واتقصّى كل جملة من جملها؛ فاتخيّل طيفه متجلّياً في حنايا السطور؛ واتمثّل روحه مشرئبّةً من ثنايا الحروف.

ثم انقطع عني بضعة اشهر دون ان يخصّني برسالة او ببرقية ارتاح اليها. فساورتني الظنون؛ وامسيت اترقب بفارغ الصبر اخبار الحرب؛ واقف امام المذياع اواصل تحرياتي في معارك الشرق الادنى.

وقد زادت هواجسي عليه حتى بلغت درجة اليأس بعد هزيمة الحلفاء في طبرق، وارتدادهم السريع عن ليبيا وعن بعض ارجاء مصر المتاخمة لها. وصمودهم في العلمين المعقل القريب من الاسكندرية.

ان هذه الهزيمة المشؤومة جعلتني اتقلّب على احرّ من الجمر بين افكار متناقضة شديدة التجهم؛ وظنون مرجمة كلها حالكة اللون. فكان كل فكر يقضّ مضجعي؛ وكل حدس يشلّني ويضعضع قواي.

. . . . . .

ودال الزمان على صفوف المحور فعاد الحلفاء الى ليبيا يختطفون ارضها من العدو اختطافاً، وينقضّون على معاقلها ومدنها انقضاض النسور.

ثم رست مراكب الحلفاء على شواطىء تونس، تقلّ جيوشاً مجهّزة باوفر العدد والمعدات، تحميها في الجوّ اسرابٌ هائلة من احدث الطائرات والقانصات؛ ويصونها في البحر اسطول ضخم مؤلف من اعظم المدرعات والمدمّرات. وقد ساعد على نزولها في تلك البطاح، جيش فرنسي مرابطٌ هناك؛ انتقضَ على الهدنة التي وقّعها المرشال بتان واعوانه مع الالمان وحلفائهم، وانضم بجملتهِ إلى جنودنا البواسل.

فامست قوات المحور بين نارين: نار تشتعل في تونس وتقذفها بصواعق الحمم، ونارٌ تتأجج في ليبيا وتمطرها بقذائف الجحيم.

لقد كانت معركة افريقيا من اروع المعارك في هذه الحرب، تلاحم فيها الفريقان ملحمة الفناء. وانتهت بانهزام المحور وابادة جيشه في القطاع الافريقي كله، على الرغم من استبساله ودفاعه المستميت عن كل بقعة من تلك البقاع الصحراوية، وعن كل واحةٍ من واحاتها المبعثرة في خضمّ الرمال، وعن كل شبر من غياضها المخضلّة وربوعها الآهلة.

وبينا كان الحلفاء يتبادلون تهاني الظفر، ويهلّلون لاستئصالهم شأفة العدو من شمالي افريقيا، كانت كندا ايضاً ترفع الوية النصر على مشارف دورها ومبانيها العامة. وفتيان مونتريال وفتياتها يتألّبون في شوارعها المزدانة بالشارات والاعلام، يملأون الفضاء باناشيدهم وهتافاتهم وكنت انا بينهم اهزج مع الهازجين، ونفسي مقسّمةٌ تترجح بين عاملين: عامل الفرح للنصر الحاسم الذي احرزته جيوشنا في الشرق الاوسط، وعامل الخوف على حياة خطيبي الذي قطع عني اخباره من امد بعيد.

فكان لساني يهزج بمل. شدقيه، في حين كان جسمي يضطرم بهواجس قلبه وانتفاض رئتيه.

صورٌ فظيعة. وتخيّلاتٌ راعبة كانت تتملّك ذهني وتنطبع في مشاعري. حيث كنت تارةً اتخيّلُ خطيبي ممدّداً في الصحراء تنهشه الضواري. وتنقض عليه النسور، وتلعب به زوابع الرمل. وطوراً اتصوّره جريحاً تائهاً في موحشات القفار، قد يقضي حتف انفه جوعاً وعطشاً ونزيفاً. واحياناً كان يتراءى لي مقيداً بغلائل الاسر، مكرهاً على القيام بأشقّ الاعمال وامضّها.

هكذا كنت مترجرجة النفس، عندما جاءني كتابه الثاني يحمل اليّ بشائر سلامته وغرر جهاده . فكان لي روحاً علوياً انعشني املا ورجاء .

وهذه هي رسالته التي اثلجت صدري ومحت من مخيلتي فظائع تلك الصور الرهيبة .

عزيزتي

لا شك انك في هاجس من نحوي لتخلفي عن مكاتبتك طيلة بضعة اشهر قضيتها كلها في جبهة الحرب — هذه الجبهة المترامية الاطراف والمجاهل، الممتدة من مصر الى مراكش

لقد كُتب لنا بان نجابه فيها عدواً قوي الشكيمة شديد المراس، مكتمل الاهبة، وان نحاربه في ارض وعرة معظمها صحراوي شديد الحر، معدوم الماء والنبات. ومع كل هذا اعدّ نفسي من المحظوظين حيث تسنّى لي ان اخوض هذه المعركة الرهيبة التي تُعتبر من اروع معارك البشر .

وقد ظلت مدة طويلة تتراوح بين كرّ وفرّ، وتقدّم وتراجع، الى ان قيض الله لنا ان نفني الاعداء ونبيدهم من تلك القطاعات الشاسعة .

لقد قمت خير قيام بكل ما عُهد اليّ من المهمات، وكنت كلما ازدادت المهمة خطراً، او اشتدّت المعركة هولاً ازداد صموداً واشتدّ عوداً.

فجُرحت في موقعة تونس جرحاً تافهاً التأم في بضعة ايام، ثم عدت للنضال الى ان دقّت اجراس النصر.

فمُنحت رتبة ضابط في الجيش وعدة شارات كلها تدل على تفاني وتفوقي في اساليب الحرب.

وبعد انتهاء العراك أذن لي بان اقضي اجازتي في تونس، هذه المدينة الملقبة بالخضراء، لكثرة ما فيها من الرياض والحدائق، وما يحيط بها من غابات النخيل والزيتون وباسق الشجر. وهي في هندسة ابنيتها، واشكال سكانها عبارة عن مزيج شرقي غربي، والساحل الافريقي في حوض المتوسط كله من هذا المزيج، يتلاقى فيه طارف الغرب بتليد الشرق، وتتعانق قباب كنائسه ومآذن مساجده، كما تختلط فيه ألسنة الفرنجة برطانة البربر ولغة العرب، وتمتزج القبّعات والقلانس بالطرابيش والعمائم، واللباس « المزمك » الكامد اللون، بالقفطان الفضفاض والبرانس المزركشة.

والنساء ايضاً في هذا القطر، اشكال والوان، بعضهن ناصع الوجه ازرق العينين يتبهرج بافانين الغرب ويتزيا بازيائه. وبعضهن حنطي البشرة اشهل الطرف يجمع بين اللونين والقيافتين الغربية والشرقية، ويبدو فيها وافر الفتنة رائع الجمال. وبعضهن شديد السمرة اكحل اللحاظ يتجلبب بجلباب الشرق ويتحجب بحجابه.

غير انه يخفي وراء الملاءات عيوناً حالكة كالليل وهاجة كالماس الاسود.

فمن يطوف في احياء هذه المدينة، يشعر كأنه في مسرح للصور المشبّحة لا في مدينة كمدن بلادنا. حيث تعرض امامه انواع الجنس البشري بمختلف اقوامه والوانه، وبجمل عاداته وازيائه.

وما يفوت هذه المدينة من ذلك، يتمّمه منظر جيشنا الحليف الرابض في تلك الاصقاع، والمؤلف من شتى الاقطار والامصار ومن مختلف الاجناس والالوان.

. . . . . .

لم اتمكن من زيارة لبنان مع كل رغبتي في مشاهدة ربوعه حتى انني فضّلت الالتحاق بجيش الشرق الاوسط، لعلّي افوز بأمنيتي هذه التي هي ايضاً امنيّة والديّ العزيزين.

لكنّ ظروف الحرب حالت بيني وبين هذا الجبل الذي شُغفت به منذ طفولتي، ورشفت حبه رضيعاً على صدر اميّ وبين احضان ابي. فترعرعت في الحجر الابوي لا اسمع خبراً اشهى على القلب من اخباره، ولا ذكراً اطيب من ذكرياته، ولا اعي حديثاً اوقع في النفس من الحديث عن روعة جماله، وجلال ارزه، ومفاخر آله.

فمنذ بدأت ادرك الامور، كان لبنان ولا يزال محور حديث ابويّ وبيت قصيدهما، فكيف لا يكون محور حديثي وبيت قصيدي وقد تفرّعت من دوحتهما وانسلخت من جرثومتهما.

لقد تعرّفت بجندي اميركي المولد، لبناني الاصل، اسعده الحظ بمشاهدة لبنان. فزوّدني منه اخباراً طريفة تستهوي اللب والمشاعر وهذا بعض ما قاله لي:

ما خلق الله بقاعاً اجمل من لبنان ولا اودية او هضاباً اروع من اوديته وهضابه، ولا هواء او ماء انعش من هوائه واعذب من مائه، ولا قوماً اكرم واعطف من قومه، ولا قرويين اوفلاحين ارقى من

قروييه وانظف من فلأحيه .

واردف انه صرف هناك قرابة شهر تذوّق فيه اشهى المتع واللذاذات، وشاهد ارز الرب الخالد وتتنقل بين اشجاره الهازئة بكرات العواصف وتعاقب الاجيال. وهبط قرية آبائه واجداده، فرآها منزوية في ركن متواضع من اركان الجبل النائية عن مواطن الاصطياف ومجمّلات الانسان . غير انه الفاها على عرائها من القصور والدور، والجادات المرصوفة، والساحات المنظمة، والحدائق المنمقة، تتميز بجمال طبيعي يقصر عنه الفن، وترفل بسكان اقوياء البنية كرماء الاخلاق، يطفح الورد من نضارة وجوههم، ويلمع الذكاء من عيونهم ويقطن الجود في حنايا صدورهم .

لقد استقبلوه استقبال الفاتحين، وكانوا يبالغون في تكريمه ويقيمون له المآدب اثر المآدب، ويعدّون له الذبائح تلو الذبائح. كأنهم في عرس دائم او كأنه كما قال الانجيل. كان ميتاً فعاش وضالا فوجد .

وكانت عجائز البلدة يعانقنه بدموع الفرح، والصبايا يحيّينه ببري الابتسامات والزغاريد، والفتيان يبهرونه بالعاب السيف ويفعمون قلبه بمختلف الملاهي والاهازيج. اما الشيوخ فكانوا يضمّونه الى صدورهم ويعاملونه كأحد اولادهم . والصغار كانوا يعتبرونه كأحد عمومتهم واخوالهم .

فخيّل اليه وهو بينهم، كأنه عائش في النعيم، بين بشر غير هذا البشر وفي بقاع كوكب غير هذا الكوكب .

لقد اسمعني اخباراً ونوادر كثيرة عن لبنان، لايستوعبها كتاب

ضخم اذا شئت ان اسردها لك بحذافيرها. وكلها من هذا الطراز، تستهوي القلب، لزيارة ربوعه وغشيان ارزه، وتستشف النفس للتعرف الى مختلف سكانه ومجمل انحائه.

فعوّلت على زيارته معك فور انتهاء الحرب، وبعد حفلة زفافنا لنقضي عامنا العسلي كله في بلد المن والعسل.

. . . . . .

نحن اليوم على وشك الانقضاض على اوروبا، قلعة جرمانيا الهتلرية وحصنها الحصين. ولنا ملء الامل بأن ننتزع عنها قريباً غلّ الاستبداد النازي، وفظاعة استعباده لشعوبها الرازحة تحت نيره الرهيب.

سأكتب اليك مفصّلاً عن اول عاصمة اوروبية نستولي عليها، ولا ادري انبدأ بدخول روما الخالدة او غيرها من العواصم.

وعلى كلٍّ فالنصر اصبح منا على قاب قوسين. سنجتاح بلاد المحور حتماً، ونقهر العدو في عقر داره قريباً ان شاء الله

غداً اعود الى كندا المحبوبة، الى مونتريال مدينتنا الجميلة التي تطوي في حناياها ذكريات حداثتنا. واطياف ايامنا المدرسية، وتحفظ في جوانحها سعير حبنا ووهج غرامنا.

غداً يعود الطائر الى عشه، ويرفرف على افنان دوحته ويغرّد على مخضلّ ايكته. اجل غداً يعود المجاهد الى وطنه ويرتع بين قومه وآله في جوار عروس احلامه ومسرح آماله.

ولما تسلّمت هذه الرسالة، كان الحلفاء قد انتهوا من غزو جزيرة سردينيا وتقدموا الى صقلية. فدانت لهم بعد معارك ضارية وقتال عنيف

ثم اغاروا على مرفإ نابولي في البحر والجوّ ووطّدوا فيه اقدامهم تحت وابل القنابل وجحيم المتفجّرات ولهيب النيران .

كنت كل يوم اتلقّف الجرائد الصباحية والمسائية منذ صدورها ، لاتسقّط اخبار الحرب . وكان المذياع سميري الوحيد ، اتناول منه الانباء من معظم العواصم الحليفة حتى من بعض عواصم العدو لأتبيّن اصحّ المعلومات التي ارتكن اليها .

اما حملة ايطاليا فكنت ارقب اخبارها بالثواني والدقائق بلهفة لأن خطيبي كان في عداد ابطالها .

ولما بدأت معركتا كسينو وانزيو ، وتبيّنت هول ضحاياها ، وما جرى فيها من التطاحن المستميت بين الفريقين اللذين كانا هناك يتحاربان بضراوة ، ويدافعان عن كل منزل وعن كل شبر من الارض . حتى ان العدو لم يدع هذين الموقعين الحصينين الا انقاضاً مغمورة بالجثث والدماء . فهلعت على خطيبي ان يكون لقي حتفه هناك . غير اني كنت سالية بعض الشيء ، اولا لعدم عثوري على اسمه في النشرات التي كانت تذيعها الحكومة باسماء القتلى والاسرى والمفقودين من جنودنا . وثانياً لتغلّب الحلفاء على اعدائهم وتقدمهم شطر العاصمة الايطالية ، حيث كنت اعلّل النفس بسقوطها القريب ، واستلام برقية او رسالة من خطيبي اثر احتلالها . على ان تقدم الحلفاء نحو روما كان بطيئاً ، لأن الحرب كانت سجالا بينهم وبين اعدائهم الذين كانوا على جانبٍ عظيمٍ من القوة ووفرة الاعتدة . وكانت وعورة الارض الايطالية تساعدهم على الصمود طويلا في وجه الحلفاء ، وانزال الخسائر الفادحة في صفوفهم .

وقد صحوت ذات يوم على رنين اجراس المدينة وهتافات سكانها . ذلك كان ابتهاجاً بسقوط روما بايدي الحلفاء. فارتديت ثيابي وهبطت الشارع اتظاهر مع المتظاهرين، واهتف مع الهاتفين الذين كانوا يمثلون كل الطبقات، ويتوافر بينهم عدد الطلبة والطالبات فلم اشاهد يوماً بعد فراق خطيبي ابهج للعين من هذا اليوم الذي عمّ فرحه المدينة باجمعها، لا بل البلاد باسرها .

وفي اليوم التالي تسأمت برقيةٌ منه يحيطني علماً بهذا الحدث العظيم وينبئني عن سلامته. فازددت حبوراً وطفح قلبي سروراً .

وبعد مرور شهرٍ وبعض الشهر جاءني موزع البريد برسالته الآتية:

عزيزتي :

ا من عاصمة القياصرة الذين دان لهم العالم القديم — من مدينتهم الخالدة، مدينة الرسول بطرس خليفة المخلص، ومن ساحة قصر البندقية مقر الدوتشي مؤسس الفاشية ، وزعيمها الذي طالما تبجّح بقوته ، وداخله الغرور بنفسه باعادة مجد روما وسيطرتها على الكون، ابشرك بهذا النصر المبين الذي احرزته جيوشنا في اصقاع ايطاليا وقطاعاتها المنيعة .

لقد حاربت ببسالة وايمانٍ حي تحت لواء الديموقراطية الحافلة باسمى المبادىء الانسانية مبادىء الحريات الاربع التي وعد بها روزفلت العظيم شعوب العالم اجمع باسم اميركا وحلفائها، الا وهي: حرية القول والرأي حرية العبادة — التحرر من العوز والفقر — التحرر من الخوف

واني لواثق من تعميم هذه المبادىء بعد الحرب والاهتمام بتطبيقها

على اكمل الوجوه، كي يعيش الناس بأمن ورفاهية دون اثرة وطغيان وتعسف. فاناصوفي من اخمص قدمي الى قمة رأسي، اكره الاثرة والارهاق، واحب الحق والحرية والمساواة

تريني لهذه الغاية الشريفة استميت جهاداً في الحرب، وازداد بأساً في اقتحام ميادينها. فتقدمت بسرعة في رتب الجيش واحرزت بعام ما لا يحرزه غيري باعوام.

لقد خسرت في معارك ايطاليا عدة اصدقاء توجعت كثيراً لفقدهم، لأنهم كانوا من ابسل جنودنا والمع شباب وطننا. بينهم اليف صباي ورفيقي في الجامعة وفي معهد الحقوق جاك — الشاب الظريف الراقي الذي تعرفينه كل المعرفة وتقدرينه حق التقدير.

سقط في ساحة الشرف على بضعة امتار مني، فهرعت الى نجدته، وكلمته فلم يجب، غير انه ودعني بنظرة مغموسة بالدمع والنجيع، واسلم روحه بين يدي.

ان نظرته تلك هزت مشاعري هزاً، وكانت في مغزاها البعيد اوقع في نفسي من كل عظة، وابلغ من كل خطاب. فشيعته الى مرقده الاخير في جوار اطلال مدينة كسينو ووضعت على قبره صليباً، وطاقة من الورد الناصع.

وكم تمنيت لو كان بوسعي ان اواريه شغاف القلب، او على الاقل ان اكفنه بتراب الوطن الذي مات لأجله.

في اليوم الخامس من شهر حزيران سنة ١٩٤٤ دخل جيشنا المظفر روما الخالدة، وقد شاءت العناية الالهية ان تدرأ عنها ويلات الحرب.

فألهمت رجال المحور جعلها مدينة مفتوحة، فسلمت من الخراب، وبقيت كنوزها الاثرية محفوظة في اماكنها، تعبّر عن ماضيها المجيد في العصر الروماني البالغ منتهى القوة والسيادة، وتعرب في عهد الانجيل عن بدائع الالهام المسيحي، ومعجزات وحيه وفنه

وقفت البارحة على ضفاف نهر التيبر استعرض العصور الخوالي التي مرّت على هذه المدينة . التيبر الذي عاين ولادتها على ضفافه، وعمدها بمائه، وما برح يرويها بكوثره، اكبر شاهد عيان على مختلف وقائعها واحداثها خلال تاريخها الطويل .

لقد دالت عنها دولة الآلهة والقياصرة، فامحت من قلوب سكانها عبادة جوبيتر ومارس ومينرف وغيرهم، كما تلاشى حكم يوليوس واغوسطس ونيرون . ولم يبقَ من كل ذلك غير بقايا عُمد واطلال جدُدٍ ومعالم محطمة، وتماثيل بعضها مهشم وبعضها سليم . غير انها كلها تدل على ما كان لهذه المدينة في العالم القديم من واسع السلطان والنفوذ وما كان لأهلها من وافر النبوغ في مناحي الفن واساليب التنظيم .

وشد ما راعني من آثارها القديمة، مشهد الديماس «الكتاكومب» القائمة في جوارها وهي سراديب في جوف الارض، متفرّعة الانفاق، مترامية الآفاق، يضيع السائح في داخلها بلا مرشد يرشده الى اجتيازها.

لقد كانت فيما مضى موئل المسيحيين الاولين، يقيمون فيها شعائرهم الدينية خوفاً من الاضطهاد. وهي تحتوي على بقاياهم وآثارهم، وتدلّ على ما كانوا يقاسونه من العذاب والتنكيل في سبيل عقيدتهم. فانتصروا على الوثنية الرومانية بقوة الايمان، وبذل الارواح، لا بقوة

السلاح . هكذا نحن اليوم سنتغلب على المحور بقوة ايماننا بالديمقراطية وبذل ارواحنا في سبيلها .

اما الفاتيكان معقل خلفاء الرسول بطرس ، فهو في روما اليوم آية الآيات .

جئته امس وعبرت اليه من ساحة هامة الرسل التي تشرف على مدخله الرئيسي ، وتطل على اعمدته الجبارة القائمة على جانبيه قيام الرسل على جانبي المخلص . تتصدرها ام الكنائس المسيحية المزدانة في منظرها الخارجي بابدع التماثيل واروع القباب ، والمتلألئة في داخلها بجماع معالم الفن واشعاع الروح ، وعجائب الالهام البشري .

وفي باحات القصر الرسولي يقوم معبد سكستين الشهير الموشى برسم الدينونة لميكلنج . وهو اروع رسم لاعظم فنان عبقري عرفه الناس . ويحضن الفاتيكان ايضاً في ردهاته الواسعة آيات رافائل وبدائع عظماء الفنانين الغابرين . ناهيك عن متحفه الرائع الذي يحتوي أنفس مخلفات الانسان ، واندر الهدايا المقدمة للباباوات من ذوي التيجان وارباب السلطان .

فمن يشاهد كل هذه الروائع ، يقدر ما لأحبار روما من الايادي البيضاء في احياء الفن وتخليد آثاره .

ويوجد في روما عدا الفاتيكان عدة قصور اثرية تحفظ ضمن جدرانها اندر الكنوز والتحف ، وادهش التماثيل والصور . وما تمثال موسى سوى احدى تلك النفائس الغالية التي لا ينقصها لبلوغ الكمال ، غير دبيب الحياة في تضاعيف اجزائها الرخامية وحنايا ضلوعها الباردة .

هذه لمحة عجلى عن مدينة روما وددت اتحفاك بها على سبيل الالمام بعظمة آثارها وفنونها ، ليقيني التام برغبتك الحارة في معرفة ذلك .

وثقي بانني لم استوعب من كنوزها الخالدة غير النزر اليسير . وهل يتمكن جندي مثلي ، عابر طريق ، من الوصول الى اكثر من ذلك ؟ لاسيما ان استيعاب درسها يتطلب اختصاصاً ويستغرق اعواماً .

لقد استلمت هداياك وهدايا والديّ العزيزين في بريد الجنود . وكذلك رسالة منك واخرى منهما . فطبت نفساً لاطمئناني الى اعزّ اغراضي في هذه الحياة .

اني امحّضك الشكر على هديتك الثمينة المحتوية على اندر المجففات الغذائية وعلى لفائف التبغ الهافاني المشهور . فبدأت منذ وصولها ادخن « سيجاراً » منها واتنعم بنكهته الطيبة .

وقد خيّل الي كأنك عن بعد تستمرئين رائحة دخاني المتصاعد في الفضاء ، كما كنت تستعذبين شذاه متناثراً من فمي في فناء مكتبك الجميل .

غداً تنتهي هذه الحرب ، واعود اليك ظافراً باذن الله ، فينتشر اريج دخاني مجدداً في جو منزلك ، وتنطلق عطور لفائفي متماوجة مع عطور أنفاسك ، وممتزجة برياحين حديقتك .

في الامسيات الهادئة يجتمع الجنود حلقات حلقات في مواقعهم « الستراتجية » او في ثكناتهم المنعزلة عن مناطق القتال ، فيتسامرون ويتنادرون ، ويتحدث كل منهم عن اشهى ذكرياته واعذبها على قلبه .

فجميعهم يتساوون بالحمية والاندفاع حينما يتحدثون عن وطنهم

ويرددّون اطايب ذكراه . غير انهم يتباينون في سائر الاحاديث والذكريات المتصلة باعمالهم الخاصة، وبشؤون اهلهم واحبائهم .

فمنهم من لا يخلو حديثه من ذكر الازواج والاولاد، ومنهم من لا يقطع الكلام عن مهنته او دائرة عمله، ومنهم من لا يفرغ لسانه من اخبار ابويه واشقائه، ومنهم من يرشف على الدوام سلاف حبه ويردّد ذكريات غرامه .

وانا بالطبع لا ينتظم عقدي الا في حلقة هؤلاء الاخرين الذين لا يبرد حر وجدهم في اوقات فراغهم من مشاغل الحرب ، غير حديث الحب ورائع ذكرياته .

عصارى امس ذهبت الى احد المستشفيات العسكرية لعيادة الجرحى من رفاقنا . فشاهدت بعض المتطوعات في الصليب الاحمر، يتفانين في خدمتهم، ويتسابقن الى تضميد جراحهم. وتوفير الراحة لهم . بينهم فتاة اميركية الاصل، تشبهك خلقاً وخُلقا . الفيتها كملاك الرحمة تتنقل في ردهات المصح، تأسو الجنود وتواسيهم وتغدق عليهم من وافر عطفها ما يحيي فيهم ميّت الامل والرجاء، وتوزع عليهم من بسماتها الملائكية ما ينعش اراحهم ويجدّد نشاطهم .

ولولا خوفي على حياتك التي هي عندي اغلى من حياتي، لكنت اتمنّى ان اراك مثلها تخدمين الانسانية الجريح متطوعة في هذه المبرّة الشريفة التي طالما شاهدت افرادها يخترقون مواقع القتال، مجازفين بارواحهم في سبيل انقاذ الجرحى واغاثة المحتضرين .

كتبتُ الى والديّ الحنونين، شاكراً لهما عطفهما الابوي وهداياهما

النفيسة . واوصيتها بك يا ملاكي الحارس، يا بسمة الامل — يا جناح الروح .

هذا آخر كتابٍ وصلني منه، لا يبرح جعبتي، وقد اصبح صلاتي اليوميّة اردّد تلاوته اضعاف ما تردّد راهبة الدير صلواتها وتأملاتها .

وفي اليوم السابع من شهر آب من السنة نفسها، تبلّغ صديق اسرتنا وجارنا العزيز السيد روبر، خبر مصرع ولده الوحيد ارنست على جبهة نورماندیا بالقرب من مدينة كان الفرنسية التي سقطت في ايدي الحلفاء في اليوم العاشر من تموز المنصرم

فاكبرت الخطب في هذا الفقيد العزيز الذي كان يتمتّع بشباب غضّ، وثقافة عالية وصفات نادرة. ناهيك عما يربطنا باسرته الكريمة من حسن الصلات والجوار وصادق الودّ .

فرافقت ابويّ لمؤاساة والديه . فلم استطع حبس الدمع والزفير عند مشاهدتي والدته المسكينة مقروحة القلب مشلولة الجسد . لا سلوان يخفّف وهج خطبها ولا عزاء يبرّد حرّ قلبها .

فآلمني كثيراً مشهد هـذه الام الثكلى، وما برح حتى الآن يؤلمني كلما تراءت هذه المرأة امامي بهيكلها المتداعي، ودمعها المخنوق، ولسانها المتلجلج.

فامسيتُ من جراء حالتها تلك شديدة التشاؤم. لا اخال مستقبلي الّا متجهّماً، ولا ترينّي البصيرة خطيبي الا قتيلًا او مفقوداً . وسرعان ما صحّ تشاؤمي وتنبؤات بصيرتي، فقد اعلنت الحكومة اسمه بين المفقودين بتاريخ عشرين الجاري .

ليست هذه هي المرة الاولى التي تستبق البصيرة الحوادث، وتتنبأ عنها. فلها في تاريخ الانسان الهامات عجيبة، ورؤى غريبة لا ندرك لها كنهاً.

لقد هزتني هذه الصدمة العنيفة، فبقيت بضعة ايام شاردة الذهن، مروّعة القلب، لا اعي، كأنني جماد يتحرك بلا رشد، او معتوه يترجح بلا قصد. غير انني لم البث طويلاً حتى ثاب اليّ رشدي، وعادت البصيرة عن جديد تشع في جوانب نفسي، وتبدد عني هذا الكابوس المرهق. وهي التي الهمتني بوجوب مراجعة تحرير خطيبي الاخير بغية العمل بمقتضى رغباته.

فأعدت تلاوته عشرات المرار، وفي كل مرةٍ كانت تستوقفني امنيّته التي اوعز اليّ بها في رسالته الاخيرة. وهي توضح بجلاء تام هدفه المنشود، بان اخدم الانسانية الجريح متطوعة في الصليب الاحمر.

فصممت على التطوع في الحال، واعلمت والديّ بذلك. فنصحا لي بالعدول عن عزمي، فلم انتصح. ولم يقوَ ابي ان يغيّر ذرّة من ارادتي، على فرط ما بذل من وسائل العطف والارشاد. ولم تتمكن اميّ من ذلك ايضاً، على كثرة ما ذرفت من الدموع وضحّت من التوسلات.

فذهبت في اليوم الثالث والعشرين من آب الى الدائرة المختصة بالصليب الاحمر وتطوعت فيها، مظهرة لاوليائها رغبتي الحارة بالسفر عاجلا الى اوروبا عن طريق الجوّ، او في اول باخرة تمخر اليها. لأني مزمعة ان ارافق الجنود في الحرب لمساعدة جرحاهم.

سقوط باريس

وفي اليوم الرابع والعشرين من ذات الشهر اعلن الحلفاء سقوط باريس . وكان للجيش الداخلي الفرنسي اليد الطولى في تحريرها. فاستقبل العالم الحليف هذا النبأ السار بمجالي الفرح والابتهاج . وأقيمت معالم الزينة واقواس النصر في مختلف ارجاء الكون . ولبست كنداحلة العيد من اقصاها الى اقصاها . وازدهت مدنها ببهارج الاحتفالات البالغة منتهى الأبهة والفخامة.

وقد بدت مدينة مونتريال كأنها عروس مجلوّة، تتدفق نوراً وتتضوع عطوراً ، وترتدي حلة قشيبة تتلألأ بالالوان الزاهية بشارات الاعلام الحليفة المنتصبة فوق الابراج والمنازل ، وعلى شرفاتها ونوافذها . وهي تتماوج فوق رؤوس الجماهير المتراصة في الساحات والشوارع والبالغة هتافاتها عنان السماء .

لم ابرح منتلي خلال هذا العيد ، بل كنت اطل على شرفته بين الفينة والفينة لاحيي الجموع الغفيرة الهازجة باناشيد الظفر وموسيقى النصر ، واهتف متظاهرة بمشاركتها في الهرج والمرج . غير انني كنت في دخائل نفسي ، لا افكر الا في خطيبي المفقود متسائلة . احيٌّ هو ام ميت ؟ امعدم ام غير معدم ؟ اعليل ام غير عليل ؟ ألاجئ الى احد

المنازل والاكواخ ، ام مختبئ في بعض الكهوف والمغاور ؟ ام تائه في جبال الالب يتنقل طاوياً بين عواصف الثلج والزمهرير ، ليس له ما يسند رأسه ويسد رمقه .

وكادت هذه الهواجس المتراكمة على تخنق انفاسي وتعمي بصري وبصيرتي ، لولا بريق امل بعيد تراءى لي مومضاً في دخائل وجداني الحالك ايماضة الحباحب في الليل البهيم .

وما كان هذا البريق المتماوج في دخائل نفسي سوى وميض مبرة الصليب الاحمر التي ارادني خطيبي في خدمتها . فعملت كلما بوسعي لاتمام رغبته . ولم انثنِ عن ملاحقة تطوعي لدى اولياء الامر حتى فزت به في اوائل ايلول .

ولما دخلت في سلك الصليب الاحمر ، وقطّت ساعدي بشارته الحمراء شعرت كأن جلموداً يتزحزح عن صدري ويفتح امام رئتي مسارب التنفس .

لم انتظر طويلاً حتى تبلّغت امر السفر الى اوروبا وكنت اكثر ما اتوهم واخاف ، موقف وداع والدي اللذين عشت وحيدة في حجرهما الابوي ، ازقزق بين جناحيهما ، وارفرف في كنف منزلهما ، فاملأ جوّه بهجة ، واغمر جوانبه أملا .

فانا وحدي بهجة هذا البيت ، وامل ساكنيه . فكيف لا يمسي بعدي خاوياً من كل مرح ، خالياً من كل رجاء . هذا ما جعلني افكر بالسفر على غرة لأتلافى حر الوداع ، غير ان عاطفتي البنوية ابت علي ذلك .

وكانت ساعة رحيلي عن ابوي جد مؤثرة ؛ بيد انها لم تكن مفجعة

كما كنت اتوقع. فقد لمست في قلب اميٍّ بعض دلائل الصبر على الرغم من شدة تقرّح جفونها، وتجهّم غضونها. فزودتني بقبلات حارة وبكلمات كلها عطف واستسلام لمشيئة الله.

اما ابي، فقد ودّعني مالكاً اعصابه دون محجريه، حيث كانت قطرات الدمع تتسرّب من بين جفونه على الرغم منه، وقد اسمعني بضع الفاظ كلها اقدام وكلها حياة.

ولم انس ما قاله لي: لم ارزق غيرك وليداً يذود عن حياض الوطن. اذهبي بامان الله، ضمدّي جراحه كأنثى، واشحذي سلاحه كرجل

عبر الاوقيانس

ابحرت بنا السفينة قبيل الفجر مكتظة بالجنود والاعتدة، وكنا على متنها خمس اناثٍ لا غير، نرتدي البزة العسكرية ونتميز بشارة الصليب الاحمر المطوقة قبعاتنا والبارزة على صدورنا واكمامنا.

ولما بلغنا عرض البحر وجلنا بأبصارنا في غماره الفسيحة، نتفقّد ما امامنا وما وراءنا، الفينا المركب الذي يقلّنا يتوسط القافلة المتجهة شطر العالم القديم، وهي مؤلفة من عدة سفن تحمل خيرة شبابنا الى ساحة الحرب، وتمخر بهم مخفورة بالمدرعات التي ترافقها وتحرس طريقها، ومعززة باسراب الطائرات التي تتهادى فوقها وتتناوح متأهبة لحمايتها من كل طارىء.

وكان الدخان الكثيف يتصاعد من اجواف الماخرات ويتعالى في الفضاء منتصباً كالعُمُد التي تكاد لا تستوي في الجو حتى تتناثر أجزاؤها، وتتشابك حلقاتها، فتتدافع وتتجاذب، وهي تتلبد حيناً وتتمدد احياناً منبسطة فوق رؤوسنا، كأنها محيط هائل تتدافع امواجه وتتجاذب فوق المحيط الذي نشقّ عبابه

ولكن سرعان ما ألفت عيوننا هذا الجو الرهيب، فأمسينا بعد قليل، لا نشعر بغرابة منظره وفداحة وحشته. وبدأ الجنود في الباخرة،

يصرفون اوقاتهم بين الجد واللعب. يطالعون حيناً، ويتلهّون بالعزف والغناء احياناً، ويختلفون الى الرقص ومبادلة الاسمار، ويتفاكهون بالنوادر ومُلَح الاخبار، كأنهم ذاهبون الى سرادق العرس لا الى ساحات الرمس.

لقد كانوا فتياناً في ريّق الصبا تغلي دماؤهم الزكية بلهيب الفتوة المندفعة، وحرُّ الشباب الثائر. فلا جُناح عليهم اذا استخفوا بالموت، وازدروا الحياة، واعتبروا الارماس في ساحة الجهاد، اعراساً خالدة تعبق باطايب الحور والعطور، لا ارماساً تنطوي على جثث تتآكلها الديدان ويلعب بها الافعوان، كارماس الذين يقضون حتف انوفهم.

شبابٌ وثّاب، وحماسة جارفة كانا يحفزانهم الى موارد الموت، ويثيران فيهم الحميّة الى اقصى حدودها. فيبدون في هرجهم و مرجهم كالبراكين الثائرة المتحفّزة للانفجار.

وطالما شعرت وانا بين هؤلاء الجنود المستميتين، كأنني وسط البراكين الفاغرة افواهها بألسنة النار وقذائف الحمم. وكنت على الغالب اشاركهم بالحماسة والاندفاع الى ما وراء حدود العقل. فاجنّ جنونهم، واثور ثورتهم على مضرمي نار هذه الحرب الذين اقصوا الابناء عن آبائهم وامهاتهم، وابعدوا الازواج عن حليلاتهم واولادهم، وسلخوا الفتيان عن خطيباتهم، فاثكلوا، ورمّلوا، ويتّموا، وقطعوا نياط القلوب، ووشائج الرجاء.

لكنني في بعض الاحيان كنت املك روعي، واخفف من حدة اعصابي، فاتنقّل بين الجنود متفرّسة في شبابهم الغض واساريرهم الوهاجة كالجمر. واتأمل فيهم متسائلة: من منهم يا ترى سيخدمه الحظ ويعود

الى وطنه سليماً حاملا اكليل الغار، ومن منهم سيلقى حتفه غريقاً في لجج اليم او حريقاً في لهب القاذفات، او قتيلا مضرّجاً بين سنابك الخيل وفوّاتك الدبّابات !

من منهم يؤوب الى عشه، فيتمتع بحنان والديه، وينصت الى تغريد كناريه وزقزقة فراخه !

من منهم يرجع الى مهبط احلامه ومسرح غرامه — الى فتاته التي تغمر قلبه باخلص الحب، وتعمر دماغه باشهى الذكريات.

هكذا كنت افكر وانا مستلقية على فراشي في الهزيع الاول من الليل، حينما فوجئت بدويّ صفارات الانذار وقصف المدافع، ولعلعة القنابل، وصخب البحارة الذين اسرعوا قبل الجميع الى تفقّد الباخرة وتدبّر اجتنابها الخطر.

فارتديت ثيابي بلمحة البصر، وكنت من الاولين الذين صعدوا الى سطحها. وهي تعلو وتهبط في بحر هائج يزمجر صرصره، وتصخب انواؤه، ويسطع ليله الحالك ببروق القذائف النارية التي تتساقط عليه من كل جانب. فيبدو وهيج نيرانها فوق متناول البصر، وقصف رعودها فوق احتمال الآذان.

ورأيت الجنود بسلاحهم التام مرتكزين في انحاء الباخرة وهم مستعدون لكل طارئ.. ونحن الفتيات كنا هناك اتبع لهم من ظلّهم.

لم اتكلّف سؤالاً عما جرى، لاني منذ صعودي على متن الباخرة عرفت من لغط البحارة: ان غوّاصة جرمانية اجهزت على احدى سفننا الامامية فاتلفتها. فأصلتها مدرعاتنا وطائراتنا النار. غير اني لم اعلم

في الحال هل غرقت الباخرة في عبر المحيط، وهل نجا بحّارتها والجنود الذين على متنها؟ وهل اجهزت المدرعات والطائرات على الغواصة المعتدية ام نجت من الهلاك وتوارت في قعر اليمّ ؟ ...

وبعد هنيهة توقفت طلقات المدافع والقنابل، وبدأت تظهر عن بعد قوارب النجاة ممتلئة بالجنود والبحارة، ثم شرعت تتقدم نحو السفن وتتوزع فيها . فاصابنا منها ثلاثة لا غير تحمل ماية جندي، صعدوا كلهم الى باخرتنا . بعضهم في لباسهم العسكري، وبعضهم في ثياب النوم، يندّون بالماء وتصطك اسنانهم من البرد، وترتجف اعصابهم من شدة البلل. فنحوا حالاً ما يلزمهم من الالبسة والاغذية واسباب الدف.

ثم اخذنا نسألهم عما جرى لهم. فقال لي احدهم : وهو فتى لم يتجاوز العشرين ربيعاً : كنت في بهو المركب العب « بالبريدج » وبعض الرفاق حينما فوجئنا بقصف المدافع على باخرتنا . فشلّت محركاتها في الحال، واندلعت النار في مستودع وقودها، فعمّ اللهيب مختلف انحاء الباخرة على الرغم مما استعمل من قوة المكافحة وبذل الجهود لاخمادها . فهلك بعض البحارة والجنود قتلا وحريقاً، وجرح بعضهم . غير اني لم اتمكن من معرفة عددهم بالضبط .

فطيّر الربان الخبر باللاسلكي الى مجموع القافلة وامر باحضار قوارب النجاة وانزال الجرحى اليها اولاً، ثم الجنود فالبحارة . وما فاض عن محمول القوارب غاص في البحر سباحة الى اقرب السفن .

ولا أدري هل نجا السابحون كلهم او غرق بعضهم . ولم نتمكن ايضاً من تخليص شيء من الامتعة والأعتدة لهول اللهيب، وتفاقم

الخطر على ارواحنا . وقال جندي آخر : وهو يتأوه من الم الحروق البادية على وجهه وعلى ساعديه ، انه لمشهد رهيب للغاية مشهد تدمير الباخرة واحتراقها . فرأيت بام العين بعض رفاقي الجنود تتطاير اجسامهم شظايا من شرر المدافع ، وبعضهم تتآكلهم النيران وتذريهم رماداً يمتزج بسرعة هائلة برماد مواد الباخرة المحترقة التي تخاطفها اللهيب من كل جانب ... واردف ان نجاتي من الموت وانا في قلب جحيم الموت لاعجوبة من الاعاجيب أعزوه الى طهارة قلب امي ورضا الله عليها .

لم اسمع من افواه البحارة الذين صعدوا الينا ، غير وصف الفاجعة الاليمة وفظاعة مآسيها . فلم يتمكن احد منهم من تقدير عدد الضحايا ولا من معرفة ما حلّ بالغواصة العدوة .

وبعد قليل اعلنت الاميرالية عدد الجرحى والقتلى والمفقودين في هذه الكارثة ، فبلغوا ثمانين قتيلاً ومفقوداً ومائة وعشرين جريحاً . وطمأنت انها ثأرت . من لصّة البحار ومن قرصانها فمحتها ومحتهم من الوجود .

صرفنا اليومين الاخيرين في الاوقيانوس ، لا نتحدث الّا عن هذه الواقعة ، غير ان جنودنا البواسل كانوا يعدّونها بمثابة مفاجأة تافهة بالنسبة الى فداحة المفاجاءات التي تنتظرهم عندما يقتحمون جبهات الحرب ، وينازلون الاعداء في ساحاتها الدامية المكدّسة باشلاء القتلى وآهات الجرحى والمحشرجين . فهم يترقّبون النضال بصدور فولاذية بين طوفانٍ من هزيم القنابل ورعود المدافع ، وبين براكين من نيران القذائف وجحيم المتفجّرات .

اما انا ورفيقاتي فبقينا مذعورات من هول تلك الكارثة الى ان

بلغنا ثغر بورتسموث الانكليزي. وكنت في كل لحظة اتخيل الغواصات الجرمانية تباغتنا من مطاوي اللجج، وتقذف بنا وبباخرتنا في قاع البحر.

فامسيت من جراء ذلك، شديدة التوتر، لا اسمع صوتاً او جلبة او وقع اقدام حتى اتوهمه نذيراً يحذر البحارة والجنود من خطر مداهم.

فصرفت الليلتين الأخيرتين نائمة قائمة، اكاد لا استلقي على فراشي حتى انهض منه مبغوتة الى مماشي الباخرة اتفقدها وانا محجرة العينين مرعوبة القلب.

وفي سحابة النهار، كنت اينما كنت، على متن الباخرة او في داخل غرفها وابهائها، اتوجس خيفة من أوهى الاصوات وارتعد فرقاً من اقل الجلبات.

فشعر بي احد الضباط فقال لي: انت ذاهبة الى الحرب لتفقد الجرحى وانقاذهم من جحيم الهيجاء، فاذا لم تحملي قلباً صلباً كقلوب الابطال، وشعوراً مرهفاً كشعور الأمهات لن تنجحي في مهمتك هذه التي ورطت نفسك فيها.

فاحرى بك ان تعودي من حيث اتيت اذا لم تتمكني من التغلب على ضعفك وتوتر اعصابك.

فزادتني صراحته الجافة في النصح تأثراً، غير انني لم البث أن ملكت روعي، عندما فطنت انني في حضرة ضابط تعود ان يكون آمراً او مأموراً. فأجبته بلطف: ان فتاة مثلي لم تتجشم ركوب الأهوال والمخاطر، ولم تلاق في حياتها غير دغدغة الأم وحنان الأب، لمعذورة عما يبدر منها من علائم الجزع والخوف في اول بادرة من بوادر الحرب ...

سأتمرّن على البطولة في معامع الوغى. والبطولة صفة كغيرها من الصفات تكتسب بالمران.

وبدأت فعلا منذ تلك الساعة اروض نفسي على الشجاعة والحزم، كابحة جماح اعصابي كلّما استولى عليّ الذعر، وملكتني قشعريرة الخوف من تفاقم كوارث الحرب وفداحة فواجعها.

في بريطانيا العظمى

وطئنا ارض الوطن الام حول الغروب، وذهبنا توأمن الميناء الى المحطة، فاقلنا القطار الحديدي الى لندن عاصمة بريطانيا العظمى وقاعدة امبراطوريتها التي لا تغيب عنها الشمس

بلغنا ضواحي عاصمة العواصم دون ان يحدث لنا اي حادث في الطريق. غير ان شعوري باهوال هذه الحرب بدأت تتجسّم في ذهني، لكثرة ما كنت اشاهد من الدمار والخراب، من نوافذ القطار، في المدن والقرى التي مررنا بها.

وفي الضواحي توقف القطار فجأة ثم لم نلبث حتى هدر في آذاننا دويّ طائرات الجرمان المغيرة، فالفيناها تلقي نيران حممها وجحيم متفجراتها على تلك البقعة الآهلة في الارض الانكليزية، متلفة الضرع والزرع ومطيحة المباني التي تصيبها بقنابلها، تدكها دكاً، وكانت ألسنة النار تندلع من المنازل المهدّمة وتنتشر في تلك الارجاء انتشاراً مروّعاً، حتى بتنا نخشى تفاقمها حول قطارنا اكثر من تفاقم القنابل.

وفي الحال دوّت بطاريات المدافع المضادة للطائرات، فنجتنا من القانصات المغيرة واجلتها عن سماء بريطانيا بعد ان اسقطت بعضها، حيث كنا نراها تهبط مشتعلة على الارض كما تهبط النيازك. واسرعت

كتائب الجيش ومفرزات الاسعاف تكافح النيران وتنقذ الجرحى من بين الأنقاض بهمّة قعساء وجهاد دونه جهاد الجبابرة.

لقد شعرت بالخوف عند وقوع هذه الغارة المفجعة التي كانت اكثر فداحةً واعظم هولاً من غارة غواصة العدو في الاوقيانس. على انني في هذه المرة لم اخسر رباطة جأشي كما خسرتها في البحر.

اما القطار فنجا من وابل القنابل المنصبّة حوله كمن ينجو من اشداق الموت، وعاود سيره الى لندن، فبلغناها سالمين، وتوزّعنا في ثكناتها منتظرين امر الابحار الى فرنسا.

بقيت عشرين يوماً اتنقّل في جوانب هذه المدينة دون ان اعمل شيئاً يستحق الذكر. فكنت قليلاً ما اختلف الى المستشفيات للتمرّن، ونادراً ما كنت اساعد بعض جرحى الغارات في الشوارع.

وقد آلمني حقاً وراعني نفساً وجسداً، مشهد الخراب الهائل الذي لحق بلندن من الغارات الجوّية التي كانت تتعقّبها بدون انقطاع.

في هذه المدة القصيرة التي صرفتها في لندن، رأيت بام العين عدة غارات تنقضّ عليها من وراء السحب، وتقذفها باطنان القنابل والمتفجرات فتزيدها خسارة بالنفوس وتخريباً بمختلف الاحياء والشوارع.

فكم من قصور امست اطلالاً، وكم من احياء اضحت مكدّسة بالانقاض. وكم من شبان وشيب أردتهم الغارات الجوية في الشوارع، وكم من رجالٍ ونساء مزّقتهم اشلاء في داخل مكاتبهم ودوائر اعمالهم.

وكم من طلاّبٍ وطالبات لقواحتفهم في المدارس والجامعات، بين اوراقهم وكتبهم. وكم من شيوخٍ وامهات واطفال زهقت ارواحهم

تحت انقاض دورهم وبين ظلال حدائقهم وبساتينهم .

ومما ادهشني حقاً وعلّمني الشجاعة والصبر، رباطة جأش الشعب الانكليزي الذي ابصرته في ابان الغارات يختلف الى الملاجىء هادىء البال ساكن الاعصاب .

نساء ورجال، وفتيان وفتيات، واطفال على مناكب آبائهم وامّهاتهم وشيوخ متكئون على عكازاتهم وسواعد ذويهم، كلهم عند صفارة الخطر يتجهون الى اقرب ملجأ بكل انتظام دون شغب وضوضاء، ودون رعب او تزاحم بالمناكب . فهم يبدون كأنهم ذاهبون الى هيكل من الهياكل، لا هاربون من وجه الخطر المحدق بهم .

والملاجىء في لندن وافرة ومشيدة على الغالب تحت الارض، ومعدّة اعداداً وافياً بالمرام، تتوفر فيها الراحة، وتسطع بالنور الكهربائي ولا تخلو من الماء وبعض الغذاء . وهي تحتوي ايضاً الادوات الصحّية اللازمة للاسعاف عند حلول الطوارىء .

وقد تسنّى لي ان ازور بعض هذه الملاجيء الفسيحة التي اوجدتها دواعي الحرب الحديثة في اوروبا . فدخلت بعضها في ساعات الهدوء والسكينة على سبيل الاستطلاع والدرس، كما ولجتها مرغمة في الظروف العصيبة — ظروف الغارات الهائلة التي كانت تظهر بغتة فوق سماء لندن، وتقذف نيرانها الجهنمية على الثكنات والمصانع وعلى المستشفيات والمنازل دون استثناء .

ان اول ملجأ دخلته الفيته لأول وهلة شيئاً جديداً لم تألفه عيناي من قبل . لأن كندا لم تحتج في هذه الحرب الى انشاء امثال هذه الملاجىء

في ارجاء مدنها واريافها. فهي بموقعها الجغرافي محصنةً بالاوقيانسين عن مرمى قانصات الاعداء.

لقد دخلت ملجأً خلال احدى الغارات التي طال امدها، وكان بقربي شيخ طاعن اربى على الثمانين، فعرّفته بنفسي ثم قلت له. ان الشعب الانكليزي لشعب جبّار حقاً، لأنه يتحمل بشجاعة وصبر امثال هذه الغارات المتواصلة والفواجع المتراكمة. فاجابني بلهجة لندنية لا تخلو من الاباء والكبرياء اللذين يسريان في دماء هذا الشعب العريق. ان هذه الغارات التي تستعظمينها اليوم لا تُعدّ شيئاً بالنسبة الى ما قاسيناه من امثالها في العام الماضي. اننا نحن معشر الانكليز لا نفقد زمام اعصابنا مهما تشتد علينا الاهوال وتتراكم الفواجع، لأننا نملك خُلقاً بارداً كبرودة الثلج، صلباً كصلابة الفولاذ.

وقالت لي امرأة بجانبه. كنّا في باديء الامر نشعر بالذعر كلّما دوّت صفارات الانذار، وداهمتنا الطائرات المغيرة بنيرانها الجهنمية، اما اليوم فقد اعتدنا تحمّل ويلاتها، فامست في نظرنا شيئاً مألوفاً لا يرعبنا ولا يخيفنا.

وكان في الملجإ احد الطيارين الانكليز يسمع حديثنا فتنطّح وقال: لم نخش بطش الالمان وجبروتهم ونحن عزّل. لقد حاربناهم وحدنا عاماً كاملاً وصمدنا في وجوههم صموداً ادهش العالم باسره، فكيف نخشاهم اليوم، وكفّتنا ترجح كفتّهم في العدد والمعدّات في مجمل ميادين الحرب. ان الجزر البريطانية التي كانت على توالي الاجيال سيفاً مسلولاً فوق رقاب الفاتحين ستظل هكذا فوق رقاب الالمان وحلفائهم.

فثارت ثائرة احد الصبيان الجالس بقربنا عند استماعه كلام الضابط، وقال له بلهجة الواثق بنفسه : غدا اصبح مثلك طياراً مغامراً، ألوي عنان طائرتي فوق برلين، واهدم بيوتها كما هُدمت بيوتنا، واثأر من رجالها المتوحشين الذين اغاروا علينا بطائراتهم ونكلوا بنا في مدارسنا وفي عقر دورنا.

لقد لمست لمس اليد في الفترة القصيرة التي صرفتها في لندن، نفسية الشعب الانكليزي نساء ورجالاً واحداثاً. فألفيتهم على اختلاف اعمارهم وطبقاتهم، كلهم يلتهبون وطنية ويؤمنون بالنصر ايماناً لا يتزعزع، كايمانهم بديمقراطيتهم وعبقرية رجالهم. وهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن الله معهم في الملمات يشدّ ازرهم ويسدّد خطاهم.

وشعرت بشدة التقنين منذ وطئت قدماي الارض الانكليزية، حيث التجأت الحكومة الى سن قوانين الاعاشة طوال مدة الحرب، ونهت الشعب عن التفريط بالمواد الغذائية والالبسة على اختلاف انواعها.

في فرنسا

وفي اوائل تشرين الاول عام ١٩٤٤ تلقّيت امراً بالسفر الى فرنسا. فاقلعتُ بحراً اليها في باخرة مكتظة بالجنود، بينهم كتيبة كندية ساعدني الحظ ان اتعرّف الى بعض افرادها في الساعات القلائل التي كنا خلالها نجتاز بحر المانش الذي يفصل الوطن الاّم عن فرنسا.

فتبيّنت من خلال احاديثهم، انهم جاؤوا من العالم الجديد الى العالم القديم في نفس القافلة التي جئت فيها.

فكنت جدّ مزهوّ برؤية نخبة من ابطال بلادي تجنّدوا بمل، اختيارهم للذود عن امبراطوريتنا المهدّدة، وللدفاع عن الشعوب المهضومة حقوقها وحرّياتها.

بلغنا ثغر شربورغ الفرنسي بكل اطمئنان، غير اننا لم نلبث فيه سوى بضع ساعات صرفناها متجولين في بعض احيائه القريبة من الميناء. فالفينا معظم ابنيتها خراباً وارصفة شوارعها مكدّسة بالانقاض.

وكان الفرنسيون والفرنسيات يخرجون من اقبية منازلهم المهدّمة، ويهتفون لنا هتافاً شديداً. وصغارهم كانوا يعتلون الانقاض، ويهزجون بالاناشيد فوقها، تهليلا بمقدمنا. وصغيراتهم، كنّ يتراكضن بين تلك الخرائب متسابقات ليرشقنا بالعطور والزهور. وكلهم تتلألأ وجوههم

ببشائر الامل الوضاح، وتترقرق عيونهم بدموع الفرح، لخلاصهم من جور الاحتلال النازي الذي أخذ بخناقهم وحملهم من المآسي ما لا تحمله الرواسي.

وقفت قليلا على اطلال احد المنازل اتأمل هول فظائع الحرب. وبينا انا مستغرقة في هذا التفكير، تقدمت مني فتاة صغيرة ملائكية الروح، سماوية العينين، وردية الوجه، شقراوية الملامح، لا تتجاوز عامها العاشر، ورجتني ان اتقبل منها طاقة من البنفسج جمعتها من بين خرائب منزلها المهدم. فتناولتها شاكرة لها رقة عاطفتها، بفرنسيتي الكندية التي رأيتها لا تفرق عن فرنسية الفرنسيين الا بمقاطع بعض الكلم، ومخارج بعض الالفاظ. ولا تتميز عنها الا بمقدار ما تتميز اللهجات الاقليمية بعضها عن بعض في الوطن الواحد.

فابرق وجهها لما رأتني اتكلم لغتها بلهجة لا رطانة فيها. فسألتني أفرنسية انت؟ فاجبتها لا. انا كندية المولد والوطن، امتُّ الى فرنسا بصلتين غير منفصمتين — صلة اللغة وصلة الارحام القديمة.

ثم سألتها عن حالها: فدمعت عيناها في الحال وقالت: انا يتيمة الاب والام، قُتل والدي في معركة فرنسا، وفُقد اخي في ضواحي باريس، وانهار بيتنا الابوي في احدى الليالي من وطأة القذائف التي تساقطت عليه، فماتت امي تحت انقاضه. ولا اعلم كيف نجوت بنفسي من انياب الموت، حيث كنت بقربها ساعة الانهيار.

اني لمؤمنة بانه حصل ذلك باعجوبة من عجائب القديسة تاريز التي كنت في تلك الساعة الرهيبة التمس منها العون.

فكفلتني عمتي العجوز واحاطتني بعنايتها . وهي ايضاً فُجعت بوحيدها في هذه الحرب ، وتداعى بيتها الجميل الذي كانت تُحسد عليه ، ولم يبق منه سوى زريبة لمأوانا لا تصلح للدواجن .

فانهمرت دموعي عفواً من شدة التأثر ، وهممتُ ان اضع بجيبها بعض الدريهمات ، فأبت ذلك حياء وخجلاً قائلة : ان عمتها تحنو عليها وتؤمن لها حاجاتها الضرورية وفقاً لقوانين التقنين السارية في وطنها .

فاظهرتُ لها رغبتي بزيارة عمتها وسألتها : أبعيد بيتها من هنا ؟ فاجابت لا . هو في الشارع الملاصق لهذا الشارع . ومشت امامي اليه .

لم انظر هناك بيتاً بل انقاضاً مكدسة بعضها فوق بعض ، واعمدة متداعية ، واحجاراً متراكمة ، وبلاطا متناثراً في فناء حديقة كبيرة تهدّم سورها ، وامسى ركاما لمأوى الجرذان والزواحف .

وتدلّ هذه الأطلال والبقايا ، على انها كانت قصراً جميلاً ، لكثرة ما شاهدت فيها من الحجارة المقرنصة والبلاط الفاخر ، والاعمدة الدقيقة الصنع . فقلت للفتاة وانا اتقصّى تلك الخرائب : حقا كان لعمتك منزل تُحسد عليه . . .

ثم امسكت الفتاة بيدي ودارت بي خلف الانقاض وانزلتني دهليزاً اوصلني الى احد الاقبية التي بقي وحده سليماً في هذا البيت الكبير .

فرأيت عمتها جالسة الى الموقد تشعل فيه حطام ابواب قصرها للتدفئة وتهيئة الطعام .

فقدّمتني اليها قائلة : هذه سيدة كندية من مبرّة الصليب الاحمر رأيتها في طريقي ، فهديتها باقة من البنفسج عربون شكر الفرنسيّات

الصغيرات لمنقذيهن . وقد شاءت ان تتعرّف اليكِ فجئتك بها . وهي تتكلم الفرنسية مثلنا يا عمّتاه .

فتأهلت بي العجوز واجلستني قربها حيال المدفأة على احدى الوسائد القديمة ، وقالت لي وهي مشيرة اليها : لم يبق لي مق اثاثي ورياشي غير محتويات هذه الغرفة الحقيرة فعذراً .

لقد كانت مستودعاً للفحم فحوّلتها ملجأً خلال هذه الحرب . . . . وكنت فيها عند وقوع تلك الغارة المشؤومة التي طاحت بالبيت وبكامل اثاثه ورياشه .

ثم اردفت بكل هدوء ورصانة : لقد خسرت داري ووحيد دياري في هذه الحرب . وفُجعت بأخي وامرته ايضاً . ولم يبق لي على قيد الحياة غير ابنته هذه التي جاءت بكِ اليّ . وهي البقية الباقية من اسرتينا العريقتين في هذه المدينة .

فقلت لها : ازكِ لجبّارة حقاً باحتمال رزئكِ المزدوج الذي لا يعوّض . . . . فاجابت : وقد بدت بسمة الاباء على وجهها المتجعّد ، عوضني الله عن فواجعي بنجاة فرنسا من مخالب « البوش » .

فاكبرت عاطفة هذه العجوز نحو وطنها ، وقلت في نفسي : ان بلاداً تنجب امثالها لن تموت .

لقد علّمتني هذه العجوز الفرنسية امثولتين لن انساهما في حياتي — امثولة تحمّل افظع التضحيات في سبيل الوطن ، وامثولة الصبر على اوجع المكاره .

رأيتها على الرغم من ثكلها ، وترمّلها ، وخراب منزلها ، ومعيشتها

المقترة في مستودع الفحم، ابيّة النفس، قانعة القلب، جبّارة العواطف، كأنها لم تكن يوماً صاحبة قصر منيف، تعيش في رحابه بسعة وبذخ محفوفةً بخدمها ومشمولةً بعطف زوجها وبرّ ولدها .

فابديتُ لها استعظامي لرباطة جأشها، واستكباري رمز صبرها وقناعتها . فقالت : لم اتحمّل في سبيل وطني غير الفاقة والصبر على الفواجع . فلم اذد عنه كما ذادت الفرنسيّات في جيشنا الداخلي الذي لم ينثنِ عن محاربة « البوش » بروحٍ فرنسية تأبى الضم والخنوع، وتؤثر الموت عليها .

فانا عجوز متهدّمة الاعصاب كما ترينني، لا تحملني الرجلان للنضال ولا تطيعني اليدان للقتال، لا تمكّن من القيام بنفسي بواجب الدفاع عن وطني المفدّى .

خرجت من زيارة تلك العجوز أصلب قلباً على تحمّل الطوارئ . فقد كانت لي حقا خير قدوة اقتدي بها في الشجاعة والصبر على صروف الزمان .

في باريس

جئت باريس عاصمة النور في سيارات الجيش . فاجتزت طريقا ممتلئة جوانبها بالاسلاك الشائكة، وبحطام الآلات الحربية المتنوعة. وابصرت على مرمى الطرف حقولا باثرة، وضياعا خاوية، ومدنا تكدست ركاما. مما يدلّ على ان الحرب كانت هائلة في ذلك القطاع من شمالي فرنسا.

اما باريس فرأيتها احسن بكثير مما كنت اتوقع ان اراها. فلم يلحقها الخراب الا يسيراً بالنسبة الى غيرها من المدن التي كانت مثلها ميدانا للحرب .

فمعظم دورها وقصورها الاثرية بقيت سليمة من كل اذى، واكثر تحفها الفنية كانت مخبأة وبعيدة عن متناول ايدي الالمان ومرمى قنابلهم .

غير انهم استطاعوا أن يقضوا بطائراتهم على بعض الآثار الرائعة في حنايا باريس ويستولوا في فترة احتلالهم لها على بعض كنوزها القيمة التي لا تقدّر بثمن .

كانت باريس عندما دخلتها معقل جيوش الحلفاء، تذخر بالكتائب والفيالق من كل قارة من القارات الخمس، ومن كل أمة ولون من امم البشر والوانهم .

وتعجّ شوارعها وجاداتها بقوافل المصفّحات والدبّابات، وترعد سماؤها بأزيز القانصات والطائرات.

فلم تخلُ ربضة من ربضاتها من قعقعة الجنود وقرقعة عتادهم. مفرزات من الجيش لا يحصى عددها، رأيتها تتنقل في رحابها غادية رائحة، داخلة خارجة على الدوام.

فخلت نفسي: انني في قلب المعامع مع ان المعارك الحربيّة كانت قد تخطّت باريس كثيراً وبلغت معاقل البلجيك والفوج، وضواحي متز وبلفور ومشارف عاصمة الالزاس.

لم امكث في باريس سوى بضعة اسابيع قضيتها متمرّنة على اساليب التضميد في مستشفيات الجيش.

فرأيت هناك مئات الجرحى المختلفي الجنس والوطن والدين متجاورين في اسرتهم، متساوين في المعاملة وطرق المعالجة. لا فرق بين لاشقر السماوي العين، والحنطي المعسول اللحاظ، والاصفر المشقوق البصر، والاسمر الكحيل الطرف، والزنجي الغليظ الشفتين والانف. كلّهم واحد في نظر ملاك الطب وملائكة التمريض، تجمعهم الطينة البشرية وتربطهم برباط الاخوّة الانسانية التي الفيتها هناك متماسكة العرى، لا يفصمها تفرّق الالوان، ولا تنوّع الأديان والاوطان.

وقفت امام جريح كندي قد متني اليه احدى الممرّضات قائلة. هذه ابنة بلادك عبرت الاطلسي لتخدم جرحى الحرب بكل ما أوتيت من علم واختبار ومحبة وعطف.

فرمقته بعين يغمرها الدمع، ووضعت يدي على جبينه

المحموم امسح عنه عرق الشدة ، ثم سألتـه عن حاله فقـال وهو يتفرّس في ملامحي : جُرحت في معركة النورمندي جرحاً بليغاً في الخاصرة كاد يصرم حياتي. اما الآن فقد التأم جرحي عندما ابصرت وجه بلادي يشع في وجهكِ الجميل ، وملامح شقيقتي الوحيدة ترتسم على محيّاكِ الاسيل ، وحنو الوالدة وعطفها يترقرقان دموعاً على سيمائك الملائكية.

ثم طفق يبكي عند ذكرى وطنه واحبّ الناس لديه .

فعطفت عليه بكل جوارحي ، واخذت الامس برفق شعراته الذهبية المنتثرة على مفرقيه ، واداعبها باصابعي مداعبة الأم لولدها ، والاخت لاخيها. فانس بي واستبشر خيراً بوجودي ، فلمحت بريق انسه مشعاً في ناظريه ، يتلألأ ممتزجاً بقطرات دموعه . فسألته عن مسقط رأسه ، وعمن يعرف من رفاقه الكنديين ، فذكر لي ، ما خلا اسمه ، عشرات الاسماء ، لم اقع بينها على اسم خطيبي . ثم اردف انه من مدينة كباك ، وانه يفخر بمواطنية البواسل الذين ابلوا خير البلاء في هذه الحرب . ثم شهق يترحّم على الذين سقطوا صرعى في ميادينها فشاركته من صميم القلب بالتأوّهات والمراحم .

. . . . .

هذا اول كنديّ جريح رمقته عيني ، وضمّدت جراحه يدي ، وآسته نفسي . وبقيت اتردّد عليه في المستشفى طيلة اقامتي القصيرة في باريس .

عندما اجيب طلبي بالذهاب الى جبهة القتال جئته مودّعة ، فرأيته وقد زالت عنه الحمّى وتماثل للشفاء . فهنّأته ببرئه ، دون ان انكأ جراحه

غبّ التئامها بكلمة واحدة يشتمّ منها رائحة الوداع.

لمست في باريس حيويّةً في الشعب الفرنسي لا تقلّ عن حيويّة حلفائه الميامين، كأنه لم يرزح اعواماً اربعةً تحت وطأة النازيين وفظاعة احتلالهم.

فقلت في نفسي: ان شعباً لا يضعضعه تفاقم المحن والإخفاق، ولا تذلّه كوارث الجور والارهاق، لخليق بأن يستوي في ركب الشعوب القائدة، لا في قوافل الشعوب المنقادة.

في جبهة الفوج

كان ذهابي الى جبهة الفوج في صباح يوم تراكم جليده واشتد صقيعه، وهوت سحبه على الارض، تنشر مطارفها البيض منسوجةً بخيوط الثلج وموشّاة بحبّات البرد.

لقد اخترت هذه الجبهة الجبليّة العاتية لأخدم فيها بسبب قربها من الحدود السويسرية الايطالية، لعلّ القدر يواتيني فالتقي هناك خطيبي المفقود على حدودها.

سرت بمعيّة بعض الاطباء والممرّضات في مؤخّرة قافلةٍ من قوافل الجيش الفرنسي المتجهة شطر ذلك القطاع الجبلي الشديد الوعورة والقر، والكثير الادغال والعواصف.

لم اشعر بوطأة الالم والارهاق خلال سفري الطويل من شواطىء بلادي الى باريس، مثلما شعرت بهذه السفرة القصيرة الاجل.

فاجتزت طريقاً موحشةً يعلوها الضباب ويغمرها الثلج، وتصفر الشمال في جنباتها نافثةً كل ما في جعبتها من صقيع يصك الاسنان، ويُرجف الابدان، ويجمّد عصير القلب ولهثات اللسان.

وكانت ركائبنا المصفّحة تردّ عنّا بعض غوائل البرد، وتعلو وتهبط بنا، وهي تشقّ مناكب الجليد بالنار والحديد. وتتلوّى زاحفة في معابر

الجبال وشعاب الاودية، كأنها افعوان غريب من افاعي الاساطير، اوغول عجيب من غيلانها .

وكنا على عرض تلك الطريق نتبيّن ما حلّ في ذلك القطاع من مآسي الحرب وويلاتها، على الرغم من كثافة الثلج الذي كان يحجب عنا مشاهد خرابه وحريقه، حيث كانت بعض جُدر المنازل المهدّمة، وعُمدُ الاشجار المحطّمة، تطلّ علينا من بين فوهات الثلج برؤوسها الكالحة التي تدلّ على دوارس تلك الربوع وفوادح مآسيها.

لم نقطع من الطريق نصفها عندما فوجئنا بريح صرصر اهابت بنا الى الوقوف هنيهة عن السير اتّقاء لاخطارها. فقد كانت حقاً زوبعة هائلة الهبوب، شديدة الصر، تلعب بجلاميد الصخور الراقدة تحت الثلج وتقذفها من مشارف القمم الى مطاوي الاودية، كما تقذف الكرة .

انها لساعة رهيبة تلك الساعة التي احسست فيها انني بين اشداق الموت. فتضعضعت قواي، واشتد صداعي حتى كدت افقد رشدي. فأعانني طبيب من اطباء الجيش كان بقربي، وجرّعني من العقاقير ما سكّن روعي، واهمد صداعي، ثم التفت الي وقال لي: تشجعي يا ابنتي لا تخافي! ليست شيئاً هذه الزوابع الثائرة تجاه الحرب التي سنخوض غبارها قريباً. نحن هنا كما قال الانجيل: في اول المخاض .

وما أن هدأت وطأة العواصف الجامحة حتى واصلت القافلة سيرها في منعرجات الفوج متجهة شطر المعامع الدائرة رحاها في شعاب ذلك القطاع المنيع الذي يتصل شرقاً بمدينة كولمار، وجنوباً بمدينة بلفور. غير أننا كدنا لا ننجو من هول الزوابع الطبيعية وصواعقها المدوّية في تلك البطاح

وننعش قليلا اجسامنا المهدودة، ونفوسنا المكدودة، حتى فوجئنا بما هو اشدّ فتكا وافظع هولا واروع دويا .

فرجتنا السماء رجما بصواعق القلاع الطائرة المتأججة من عنصر دماغ الانسان، لا من عناصر الطبيعة، وقذفتنا ببروق ورعود من بروق علمه ورعود كيميائه، لا تقاس فظاعتها الهائلة بفظاعة بروق السماء ورعودها !

فالفيت الطبيعة الثائرة حقيرة حيال الانسان الثائر . وجنونها المطبق ضئيلاً إزاء جنونه . لأنها مهما اشتدت صواعقها ودوّت رعودها لا تعدل ذرّة من هوجاء صواعقه وهزيم رعوده .

فاطاحت كواسره المجنحة كثيراً من سيارات القافلة وبدّدت ركبها شذر مذر . فالتوت سيارتنا عن الطريق العام ملتجئة الى منعرج يتلوّى في بطون الجبال، تنشد مستقراً امينا بين احراجها ومغاورها . ثم توقفت بنا في قلب الغاب امام كهف قديم الهجرة، يرجع الى عهد الانسان الحيوان في العصر الجيولوجي الغابر . فترجلنا منها وشرعنا نزيح ركام الثلج عن مدخل الكهف لنتمكن من اللجوء اليه . بيد أننا لم نلبث في داخله سوى عشرين دقيقة خلناها عشرين ساعة، لأن الارض تحت ارجلنا كانت جليداً قارس الرطوبة والبرد، والسقف فوقنا مقرنساً بجمد الماء، ينفث قطراته علينا وعلى تلك الارض فتقع مجمّدة من هول القرّ والصقيع .

وكانت صواعق الانسان المتساقطة من وراء السحب، تساقط السيل الجارف، تتفجّر حولنا تفجّر الجحيم، حيث كنا نشاهد بأم العين، نيرانها

الجهنّمية ترمّد الشجر بسرعة البرق، وتصهر الصخور بلمح البصر، وتذيب جبال الثلج بطرفة العين.

. . . . .

وتدفّقت الامطار عقيب تلك الغارة الهائلة تدفق الجداول. فاخمدت سعيرها الجهنمي الذي كان يلتهم تلك البقاع التهاماً، ويحيط بالكهف الذي لجأنا اليه احاطة السوار بالمعصم. فنجونا بفضلها من الموت حريقا ونجت سيارتنا ايضا من اشداق النار التي اوشكت ان تقضمها.

فصعدنا اليها إثر انفراج السيل ومضينا بها الى الطريق العام نتحرّى قافلتنا ونبحث عن رفاقنا.

وكانت سيارتنا تخبّ حينا بنا، وتتعثّر احيانا، من جرّاء تراكم حطام الاشجار والصخور التي اودت بها الغارة ودفعتها ركاما على الطريق. فبذلنا جهوداً تعجز عنها الجبابرة لأجل تأمين مرورنا.

وما أن اشرفنا على الطريق العام واجتزنا منها فرسخاً، حتى بدأنا نلمح حطام القافلة منتثراً على عرض السبيل. فترجلنا من السيارة وأخذنا نتفقّد تلك الاكوام تفقّد الكيماوي اخلاط العناصر. فلم نعثر فيها الاّ على رمم مرمّدة ورمم كالحة اللون، لم نتبين وجوهها، ولم نقع الاّ على بقايا حديد تدل بعض قطعها على أرقام السيارات. المصفحات التي درستها يد العفاء.

ثم عدنا الى السيارة نتقدم بها الى الامام، فلم نجتز ميلا حتى اعترضتنا انقاضٌ مبعثرة من السيارات والآلات الميكانيكية التي لم تقوَ القذائف النارية على ترميدها كسابقتها.

فشاهدناها هناك تلتحف الارض على ابعاد متفاوتة، وهي هامدة الجثمان. بعضها لم يزل بكامل اجزائه، وبعضها مقطّع الأوصال، منتثر الحلقات، انتثار اوراق الخريف.

اما الجنود الذين كانوا في ركبها، فلم نجد لهم من اثر بين الانقاض غير بقايا اعتدة وذخائر. فأيقنا انهم منذ عصفت الغارة توارَوا عن الطريق المعبَّد الى شعب الادغال ينشدون في حناياها مخبأً امينا.

فشددنا الرحال في اثرهم، نحمل لهم بعض ادوات الاسعاف من ضماد وأدوية وسرر نقّالة. ولم نكد نتغلغل في قلب الغاب حتى بدأنا نرى الهول — هول الموت الراعب الفظيع — هول مشهد الهياكل الفاحمة، والاجساد المقطوعة الرأس والمبتورة الارجل والسواعد.

اشلاء منثورة العظم، واشلاء مخضّبة بالنجيع، واشلاء كالحة اللون تقشعرّ من رؤيتها الابدان، الفيناها هناك ملقاة بين اكوام الثلج وجذوع الاشجار وحنايا الصخور. لم نجد بينها هيكلا واحداً يتنفّس بالحياة. فذرفنا على تلك النفوس الشهيدة دمعاً سخينا واودعناها صلاة حارة، ثم لوينا عنها متوزعين فئتين في تلك الارض الوعرة، نبحث في جنباتها عمن تبقى من الرفاق.

فئة توجّهت صعداً بين شائك الصرود، وفئة مشت منحدرة بين عصيّ الوهاد. كنت فيها اسير بجانب الطبيب الذي عالج صداعي، وكان دائماً يذودني بالقوة والشجاعة كلما لمس فيّ ضعفاً واستكانة.

مشينا في ذلك الوعر نحمل أرواحنا بأيدينا من كثرة مزالق الجليد ورهبة اخطاره. وطالما عثرت خطواتنا ونحن نجتاز تلك الادغال التي

كان الثلج في بعضها ينهار تحت اقدامنا فتمسّي ارجلنا الى ما فوق الركب مدفونة تحت اعقابه . وكنا نتعاون فيما بيننا على النجاة من فداحة تلك الاهوال التي كانت تعترضنا . وكان الواجب يزيدنا حزماً وشجاعة لمواصلة السير من اجل رفاقنا .

ولما اشرفنا على احد المعابر ، بدأنا نسمع انيناً متقطعاً يزفر في آذاننا ممتزجاً بزفرات الريح الباردة التي كانت وخزاتها علينا اشد وقعاً من وخزات الابر .

فاتجهنا شطر الانين . فاذا بنا امام مغارة تداعت بعض صخورها من صواعق الغارة على رفاقنا اللاجئين اليها ، فشاهدنا حولها وفي داخلها مجزرة بشرية هائلة . اجسادٌ حطّمتها الانقاض ، فسحقت جماجمها ونثرت امعاءها واجسادٌ ما برحت تحشرج تحت الردم لافظة ارواحها بنفس مخنوق ودم مهراق .

واجسادٌ منطرحة على الارض يتصاعد انينها ، بعضها مشخن الجراح وبعضها غير مشخن ، بعضها مقطوع الرجل ، وبعضها مبتورٌ الساعد .

واجنادٌ اعمت الغارة ابصارهم ، وآخرون غشت على بصائرهم . رأيناهم هناك يتخبّطون فوق القتلى والجرحى فيدوسون حرمة الموت ، وينكأون الجرحات بأقدامهم ، فيزيدونها نزيفاً ، ويضاعفون تباريح الآلام في الصدور التي ما برحت الارواح تخفق متلجلجة بين ضلوعها .

فتوزّع كلّ مناحول جريح يغيثه ويضمد جراحه ، وبدأت انا بمعالجة شاب اصيب في صدره ، وفي خاصرته ، واضعة رأسه على ركبتي . فرآه الطبيب الذي بجانبي يشهق شهقة المحتضر ، فقال لي : دعيه لارجاء

منه وعالجي من به الرجاء . فخلته كأنه وعى كلام الطبيب ، حيث ابصرته يحملق في كأنه يستغيثني . فلم اتركه حتى جمدت عيناه وسكنت رئتاه .

هذا اول جريح لفظ انفاسه بين يديّ . لا بل اول امرىء نظرته امامي يشهق شهقة الموت .

ان خيال جثمانه المضرّج بالدم لا يبرحني ، ومشهد عينيه الشاخصتين الجامدتين لا يغيب عن ناظري ، في حين انني ابصرت بعده عشرات المحتضرين في مصحّات الجيش ، وفي ميادين الحرب ، ولم احتفظ بسيمائهم في تضاعيف مخيلتي ، كما احتفظت بسيمائه . ذلك مما جعلني أؤمن على ان القلب البشري مهما يكن مرهف الحس ، يقسو اذا توالت عليه المحن والفواجع ويألفها كما يألف تعاقب النهار والليل .

. . . .

عدنا بالمصابين الى السيارة نحمل بعضهم على الاسرّة ، ونمسك بايدي البعض الآخر ، وكانوا عشرين رجلا بين جريح ومفقود البصر والبصيرة .

فدهمتنا العتمة ونحن نجتاز بهم أصعب المعابر . فأخذنا نستعين بالمصابيح الكهربائية التي كان يحملها كلٌ منا لتأمين خطواتنا ومعرفة وجهة سيرنا . ولولاها لهلكنا جميعاً .

ولما شارفنا الطريق العام ، رأينا رتلا من السيارات تمشي الهوينا قافلةً لا متقدمة الى الامام . فايقنّا انها شرذمة من شراذم قافلتنا ، عادت تقلّ رفاقاً جرحوا في تلك الغارة الى اقرب مصحات الجيش في تلك

الأنحاء .

وقد ألفيناها عند اقترابها من سيارتنا، تقف بجانبها مصطفة واحدة اثر الاخرى، كأنها بانتظارنا. وقد توقفت حقاً عن السير هناك لهذه الغاية . لأن بعض ركابها الجنود لمحوا من نوافذها اضواء مصابيحنا، وابصرونا نجتاز الغاب بجرحانا . فتوجه بضعة انفارٍ منهم نحونا لأجل مساعدتنا، فأدركونا قبل ان نبلغ الطريق، وفي الوقت الذي كنا فيه على شفير الاعياء، من وطأة نقل الجرحى على مناكبنا في احلك الليالي وفي اوعر المسالك .

فتنفسنا الصعداء منذ وصولهم الينا ، وقيامهم مقامنا بهذه المهمة الشاقة . وبلغنا الطريق سالمين .

فرأينا السيارات الواقفة هناك تغص بالجرحى. فاضطررنا ان نحشد بسيارتنا جميع رفاقنا المصابين ، ونتوزع نحن الاصحاء على مدارج السيارات .

وقد اخبرنا الجنود الذين جاؤوا لاغاثتنا بان معظم القافلة نجا من الغارة وادرك المعسكر . ولم نُصب على وجه التقريب باكثر من مئةٍ وخمسين نفساً بين قتيل وجريح.

مشينا على مهلٍ في فحمة الليل، بين رعودٍ قاصفة ورياح عاصفة، وبين آهاتٍ وزفرات متصاعدة من حناجر الجرحى ومختلجة في صدورهم .

وكانت المسافة التي قطعناها للوصول الى المصح جد قصيرة ، غير انها كانت جد موجعة لأرواحنا ، ومجهدة لاجسامنا .

والمصح يقوم في لحف جبل منعزل عن الطريق العام ، تحجبه عن انظار المغيرين نواتى الصخور والغابات الكثيفة القائمة حواليه .

وقد انشأه الجيش خصيصاً في غمرة الحرب ، كهمزة وصل يتناول فيه الجرحى بعض الراحة والاسعاف ، ثم ينتقلون منه الى مصحّات ديجون وبزنسون وغيرهما .

لبثنا نحن وعمدة المصح نداوي الجرحى الى ما بعد منتصف الليل . ثم أوى كلٌ منا الى السرير الذى اعدّ له .

فارتميت على فراشي ارتماء الجدار المتصدّع من شدة الاعياء ، ومع ذلك فلم اتمكن من النوم . وكيف انام ولم تبرحني دقيقة اشباح القتلى وآهات الجرحى وحشرجة المحتضرين . ولم يفتني لحظة خيال خطيبي وتأملي بغموض مصيره .

وفي الصباح الباكر شددنا الرحال الى جبهة الحرب ، وكانت السماء متشحة بضبابها الكثيف ، تنشر منه على الارض رذاذاً ناصع البياض . غير انها لم تكن مجنونة الاعاصير كاليوم السابق .

لم نجتز بعض الطريق حتى بدأنا نسمع هزيم المدافع يلعلع في تلك الارجاء ، وكنا كلما سرنا قدماً ، يزداد القصف هولاً ، وتتضاعف الاصداء المنبعثة من جوانب الاودية والجبال زئيراً ودوياً .

وصلنا قبل الظهيرة الى المصح النقال الذي يرافق الجيش ، وكان يبعد عن ساحة القتال بضعة اميال ويقوم بجانب قرية لم تبق الحرب منها غير الانقاض .

فبقينا نحن المتطوعين في الصليب الاحمر هناك ، اما الجنود الذين

كانوا برفقتنا فتابعوا سيرهم الى الجبهة .

وكان في المصح المذكور بعض الجرحى وعددٌ من الاطباء والممرضات ، ينتظرون بفارغ الصبر خمود المعركة الدائرة رحاها على مقربة منهم ، ليتمكنوا من انقاذ الجرحى واسعافهم قبل فوات الاوان .

لم نشهد هول الموقعة من المستشفى ، لأنها كانت مستعرة خلف الجبل الذي كان يحجبها عن انظارنا . فلم نبصر غير معركة الجوّ وما كان يتفجّر منها على الارض اطنانا من القذائف وصواريخ النار .

فكنا نرى الطائرات المحترقة المتأججة بافظع الصواعق ، تهوي في تلك البقاع ، كأنها اشلاء نجوم هاوية . فتخال الشمس انصهرت والارض زلزلت ، والسماء استحالت الى غازٍ محرق وجحيم مبيدة .

كيف لا — والمعركة في ذروتها كانت اشد هولاً من اساطير معارك الجن ، وتخرّصات جوامح الخيال .

فالبراكين المتفجّرة من القلاع الطائرة المتشابكة في الفضاء ، ولعلعة المدافع المتواصلة الازيز ، المنطلقة من الجانبين المتحاربين ، كانت تدك الجبال دكاً ، وتنشر أعمدة النار هابطة صاعدة من اطباق الجو الى اغوار الارض ، ومن اغوار الارض الى اطباق الجوّ .

ولما خفّ اوار المعركة ، اسرعنا الى ساحتها مزودين بأدوات الاسعاف اللازمة لمعاونة الجرحى ونقلهم الى المصح .

فعدت بنا السيارات قبل ان تخرس المدافع ويخبو هدير الطائرات . فكنا بين الفينة والفينة نسمع ازيز القنابل حيث كان بعضها يترامى على جوانبنا فيحدث الرعب في قلوبنا .

وعندما شارفنا خطوط النار، كان العدو قد تراجع نهائياً عنها، مبتعداً بضعة اميالٍ عن دائرتها الواقعة في قلب الفوج وفي اعمر قراه، تاركاً في أرجائه المخربة المصبوغة بالدم آلاف القتلى والجرحى وعدداً وافراً من العتاد الحربي.

وكان جيشنا الحليف قد تجاوز الموقعة ايضاً جاداً في اثر العدو المنهزم، بغية تطويقه ومنعه من الفرار. ولم يبق منه في ساحة العراك غير شراذم ضئيلة رأيناها عن بعد تبحث عن المفقودين بين الخنادق المتداعية وانقاض البيوت المهدّمة.

. . . . .

وصلنا الى منبسطٍ بين الجبال تغمره الجثث، وتتجاوب فيه الحشرجات والآهات، وتبدو في منخفضاته وآكامه، وسفوح قممه، عشرات القرى والمزارع المهدّمة.

فحدث لي ارتعاش نافض منذ وقعت عيني على هذا المشهد الرهيب. فخفّت لمعونتي احدى الرفيقات المتطوعات، وهي فتاة فرنسية كانت بجانبي تدعى مرتا فيّان. وادركت في الحال انني حديثة التطوع، لم اشهد ميدان حرب قبل هذا الميدان.

فسكّنت روعي، وازالت رعشتي بوافر عطفها وحنانها وعلى الاخص بقولها لي: انها ايضاً اصابها ما اصابني في اول معركة ولجتها وابصرت ضحاياها. ورجت مني ان افكر في الواجب لا في نفسي، لأنزع عنها الخوف، وامشي بقدم ثابتةٍ لمعونة جنودنا المضرجين بالدماء، المنتظرين على احرّ من الجمر قدومنا، لأجل تضميد جراحهم وانقاذهم من غوائل

الموت . ورغبت ان اسير بجانبها لنتضافر معاً في هذا السبيل .

فسرت برفقتها وئيدة الخطى ، متغلّبة على الرجفة التي هزّت اعصابي ، وعلى الخوف الذي ضعضع كياني .

واصبحنا منذ ذلك الحين رفيقتين متلاصقتين ، وصديقتين حميمتين . نعمل في حقل الواجب معاً ، وفي ساعات الفراغ نتبادل الاحاديث عن بلادينا وعن منشئنا وخفايا قلوبنا .

ومن غرائب الصدف انها مثلي مصابة بخطيبها المفقود في معركة البلجيك . لا تعلم مصيره ، كما لا اعلم مصير خطيبي . والرزء المتقارب زادنا محبةً وائتلافاً . بدأنا نبحث عن الجرحى في ساحةٍ مكدّسة بالجثث ، وكان بعضها ما يزال ساخناً تختلج فيه الروح ، وبعضها مشوّهاً ، مبتور الرأس ومبقور الأمعاء . وبعضها ممزّقاً اشلاءً متناثرة هنا وهناك .

فشرعنا نلمّ الجرحى من بينهم ونبعث بهم الى المصح بعد معالجة سريعة ، وضمادٍ موقت ، يبعد خطر النزيف والموت

فكنت ورفيقتي نعمل معاً متنقلتين من جريحٍ الى جريح ، ونتعاون عند اللزوم مع الرفاق في حمل الجرحى الى سيارات الاسعاف .

ولما ولجنا قلب المعركة الفينا الجثث تملأ الخنادق وتغمر اديم الارض . جثث فتيان في ريعان العمر ورَيق الصبا ، لم يكد ربيع الحياة يبسم لهم ، واكمام الرجولة تتبّين على ملامحهم ، حتى صرعتهم الحرب ، وحوّلت جسومهم اليانعة الى جيف رهيبة المنظر ، فظيعة الشكل ، والى اجسادٍ مخضّبة تصّعدُ زفرات الحشرجة والانين . فشرعنا نتفقّدهم واحداً واحداً لنرى من فيه رمق لنتداركه قبل فوات الاوان .

وقد ارغمتنا كثرة الجثث للتراكمة هناك، على ان نطأ بعضها اثر بحثنا وتفتيشنا.

ولا ازال اذكر انني وطئت جثماناً شعرت به كأنه ينتفض تحت قدمي. فلويت عنه متصبّبة بالعرق، مرتجفة من الخوف. ثم أخذت اقلّبه فرأيته سلخناً، غير انني لم اتحسس له لهاثاً ولا اثراً للحياة.

فقلت لرفيقتي: ياويلي! هل يا ترى وطأتي سبّبت له الوفاة؟ام زادته ايلاماً باختلاجه الاخير! لقد نشدت الخير بعملي فكان شراً.

فأجابتني بلطف وتؤدة: اكظمي ارهاف حسّك كي لا يضع قدر جهادك وفضلك، ودونك غيره من الجرحى، فهم كثر يحتاجون الى معونة سريعة.

فلبّيت نداءها في الحال وسلكت طريقها في مواصلة البحث عن المصابين وبذل الجهد لاسعافهم.

هناك وقعنا على عدد وافر من الجرحى الالمان الذين ولّت جيوشهم الادبار دون ان تتمكن من انقاذهم. فلم نفرق بينهم وبين جرحانا في حسن المعاملة والرفق. هذه ميزة مبرّة الصليب الاحمر التي لا هدف لها في الحرب، غير خدمة الانسانية المنزّهة عن شوائب العداء والبغض. فهي المنظمة الوحيدة في الكون التي تسمو على مطامع البشر وخصوماتهم، وتعلو على تناحر شعوبهم وتنازع اجناسهم وشيعهم.

وبينا كنا نحث الركاب بالتفتيش عن الجرحى، كان الجنود من ورائنا يهمّون بجمع القتلى لأجل احصائهم، ومعرفة هويّتهم وتدبير امر دفنهم.

. . . . .

ان افظع ما آلمني، وحزّ في نفسي في ميدان المعركة، لم يكن مشهد الموت الفظيع الممثّل باكداس الجثث والاشلاء، ولا لجلجة الشخير الراعب المتصاعد من حشرجة المحتضرين، ولا الزفرات المخنوقة في الحناجر، والخلجات المتقطعة في القلوب، والدماء السابحة على الارض كالميازيب.

اجل لم تكن هذه كلها على تفاقم اهوالها، افظع ما مضى وارهب ما وقعت عليه عيني. بل افظع ما تحسّسته ورأيته هناك، مشهد القرى المهدّمة، وقد تجمع حولها الباقون من سكانها، وهم بحالة تفتت الاكباد. ليس فيهم شبان اقوياء، ولا كهول اشداء، بل معظمهم من الشيوخ والعجائز الذين تداعت اعمارهم كما تداعت مساكنهم. ومن الاحداث الذين لم يبلغوا اشدّهم بعد، ومن النساء المثقلات الحاملات في احشائهن وعلى مناكبهن. غير انهم كانوا جميعهم على الرغم من اثقال الضعف وسعير الارزاء، يساعدون الجنود فوق طاقتهم لأجل نزع الانقاض عن بيوتهم، والاسراع في البحث عن مفقوديهم، وبقايا امتعتهم.

وكانت الجثث المستخرجة من تحت الردم تبدو بحالة يقشعر لها الجماد من كثرة ما لحقها من التحطيم والتشويه، حتى تنكرت هويتها على اقرب الاهل. ولولا بقايا الثياب اللاصقة بها كادت الام لا تتبيّن جثة وليدها، والاخ جثمان اخيه، والمرأة هيكل بعلها.

لقد كانت المعاول والرفوش والآلات الرافعة الانقاض تكشف عن حطام الجثث والامتعة. فتتناثر امامنا اشلاء الناس بمختلف صورها الرهيبة، وبقايا اواني البيوت ومخلفاتها المحطمة. فيهرع اليها القرويون يتفقّدونها بعيون جامدة، وحواس مضطربة، وادمغة ذاهلة ذهول

المخبولين ، من كثرة تضعضعهم امام كارثة فقدان الاهل ، وخسران الامتعة والمساكن العزيزة عليهم .

فمشهدهم المفجع حول اطلال بيوتهم ، وامام بقايا اهلهم وامتعتهم ، وهم بهذا الذهول المروّع ، برّح بي تبريحاً شديداً ، وجعلني العن الطينة البشرية التي الفيتها ساعتئذ ارذل الطينات المتحركة على الارض . والانكى انها كلما زادت تقدماً وعلماً ، زادت تمخضاً بالشر ، وتفنناً باساليب الاثم ، كأن اللسان الذي تميّزت به عن مخلوقات الله لم يكن الّا سلاحاً للمناورات وحرب الاعصاب ، والدماغ الذي تفردت به ايضاً ، لم يكن الا تفرّداً باستنباط افظع آلات القتل ومعدّات التدمير .

. . . .

غصّ المصح بالجرحى ، وامتلأت بهم اقبية المنازل القروية التي لم يلحقها الهدم . وابتدأنا نحن المتطوعات ، على رغم اعيائنا ، نساعد الاطباء في العمليّات الجراحية المستعجلة التي كانت غير قابلة التأجيل .

فكنت ورفيقتي الفرنسية نشتغل معاً بامرة طبيب بلجيكي من امهر الجراحين ، وادقهم خبرةً بفنه ، وانبلهم قلباً ، واعمرهم حيوية ونشاطاً .

وقد اجرى امامنا بضع عمليات كلها بغاية الخطورة . فالفيناه يبترساقاً ، ويقطع ساعداً ، ويشق رأساً ، ويبضع عضلاً ، ويصل امعاء . وهو في كل ذلك دقيق العمل سريع اليد . ورأينا الجرحى المساكين تتزجرج اعضاؤهم بين شفرات المبضع ، وتشخر حناجرهم تحت البنج شخيراً يقطع نياط القلوب حتى كاد يغمى عليّ من هول المشهد وشدة التأثر . غير اني امسكت

نفسي متجلّدة حتى النهاية . فلم ابارح غرفة العمليات الّا بعد انتهاء الاطباء من اعمالهم التي لا تؤجل . وكان ذلك في نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

في غضون خروجنا من الغرفة، قلت لرفيقتي التي كانت بجانبي: لقد شهدنا اليوم حقاً اروع معركة وافظع مشهد من مشاهد الحرب . فاجابتني على الفور: تأكدي يا عزيزتي ليست شيئاً فظائع هذه المعركة اذا قيست بفظائع معارك الفلاندر والنورمندي وغيرهما . .

فقلت في نفسي : ما افظع هذا الجنسُ البشري الذي ينفث ناراً احرّ من نار الجحيم، واقتل من اقتل الصواعق . فهو جهنم الكون وما جهنّم الا شرة متأججة في سويداء قلبه، وخلايا دماغه .

الى كولمار

وبعد ان تحرّرت مناطق الفوج الأ من بعض شراذم ضئيلة لا يؤبه لها، صدرت الاوامر الى فرقتنا في الصليب الاحمر للتوجه حالاً الى مدينة كولمار التي كان جيشنا الحليف يشدّد عليها الحصار ويهاجمها بكتائب دباباته واسراب طائراته وفيالق مشاته.

فوصلنا اليها في ابان المعركة الفاصلة التي انتهت بفوز جيشنا الحليف ودخوله المدينة في اليوم الثالث من شهر شباط ١٩٤٥.

وكانت فرقتنا في مقدمة الداخلين اليها لأجل القيام بعملية الاسعاف العاجل لاولئك الجنود المساكين المثخنين في الجراح.

بدأت ورفيقتي العمل معاً، فشرعنا ننقل كل جريح نعثر عليه الى اقرب سيارات الانقاذ التي كانت تذهب وتجيء بين الساحات والشوارع، ومصحّات الجيش ومستشفيات المدينة.

وصرت كرفيقتي تجاه فواجع الحرب، لا اشعر برجفة في القلب، ولا برعشة في الاعصاب، حتى امست عندي عملية انقاذ الجرحى من بين الانقاض والجثث والاشلاء، عملية ميكانيكية، يحفزني اليها الواجب الانساني الصرف.

غير اني لا ادري كيف عاودتني القشعريرة عندما وصلت امام

جريح اسلم من غيره جراحاً. واقلّ تشويهاً على الرغم من الدماء الجامدة على وجهه، وهي مخضّبة بدخان البارود الذي كان يخفي معالم بشرته.

فلم اتحسّس له منظراً. ولم اعرف له هويّة، حتى اني لم اشاء مخاطبته بذلك كي لا اسبّب له انزعاجاً.

فوضعته في سرير الانقاذ وانا ارتجف ارتجافاً، وذهبت به بصحبة رفيقتي الى اقرب السيارات.

هناك شعرت بقوة داخلية تدفعني لمرافقته الى المصحّ. لكن الواجب كان يدعوني لاتمام عملي في ساحة القتال. فهممت بالرجوع مع صديقتي. فلم تحملني الرجلان اللتان كانتا تنتفضان انتفاضاً، ولم تساعدني اليدان ايضاً اللتان كانتا ترتعشان ارتعاشاً.

فقالت لي رفيقتي: لقد اضناك التعب. فاذهبي للاستجمام في المصحّ وكوني براحة. فلم يبق من الجرحى في الميدان الا القليل.

فبقيت في السيارة جالسة ازاء الجريح، حيث كنت اشعر بدافع نفساني يضطرّني الى البقاء بجانبه. ولم اشعر بمثل هذا الدافع من قبل على كثرة الجرحى الذين احطتهم بعنايتي في مختلف الميادين.

فتحيّرت في امري وفي غرابة هذا الدافع الذي استولى عليّ، لأنني لم اتوقّع ابداً بان يكون هذا الجريح الا فرنسياً، حيث كنت اخدم هناك ضمن نطاق الجيش الفرنسي. وحيث كان بين الآونة والاخرى يصعّد زفراته متمتماً بلغة ابناء السين.

وصلنا الى المصح عند الغروب. فوضعنا الجرحى في قاعات المعاينة ليتدبّر الاطباء امرهم. اما انا فلم ابرح سريره مترقّبة قدوم الطبيب

البلجيكي الذي اشتغل تحت امرته، لأستعجله اليه. وما ان رأيته يدخل القاعة حتى اسرعت اليه متوسلة بان يبدأ بمعاينة هذا الجريح الذي لا ادري كيف استأثر بجماع عطفي وحناني.

فتلمّس الطبيب نبضه، وكشف عن جراحه، فرآه بحاجة الى المبضع. فأمرني بنقله فوراً الى غرفة العمليات. هذه الغرفة البيضاء التي تزخر بالألم والامل، وبالحياة والموت. ولا تحتوي الا مائدة للبضع، وآلات للجراحة، وعقاقير للضماد ولتسكين الاوجاع.

هذه الغرفة الناصعة الفيتها ساعتئذ اشد حلكةً من احلك الليالي، وارهب من ارهب الفواجع. لأنني لم اتخيّل فيها غير اشباح الموت تملأ جدرانها، واطيافه المخيفة تسبح في جوّها خافقة باجنحتها السود فوق المائدة التي وُضع عليها الجريح، ووقف حولها الطبيب يتفقّد جراحه. ووقفت ورفيقتي بجانبه، ونحن على تمام الاهبة لمعاونته. فأومأ الينا بان نبدأ بنزع الدماء والاقذار الجامدة على وجهه ورأسه ليتبين الجرح الذي اصابه في جبينه.

فقمنا بهذا العمل معاً حتى تبيّنت ملامح الوجه. فاخذت احدّق بها واتفرّس في تلك الاسارير التي طالما نشدتها. ثم جمدت عيناي من شدة الانفعال والتأثر. فأغمي عليّ

ولم استفق الا بعد انتهاء الطبيب من علاجه. وقد خفّت رفيقتي حالاً الي تبشرني بنجاح العمليّة التي أجريت له. وقد كانت على قولها: عمليّة مزدوجة في ساعده الايمن، وفي ساقه الايسر. اما الجرح الذي اصابه في جبهته فكان ضئيلا لم يستوجب الا بعض القطب.

فرجوتها بان ترشدني الى غرفته . فمشينا معاً اليها وانا مرتدية ثياب الممرضات، ومتدثرة بخمار يخفي معظم وجهي، كي لا يتأثر من معرفتي على الفور . فرأيته لم يبرح تحت وطأة البنج ملفعاً رأسه بالضماد وهو يزفر زفيراً متواصلا . فجلست ازاءه صامتةً لا انبس بغير دموع العين وخلجات القلب . فعرفت رفيقتي انه هو املي المنشود دون ان اعرّفها به . فقالت لي: هنيئاً لك بلقياه، وطبي نفساً بمرآه . فجراحه ليست خطرة كما تتوهمين . ثم انصرفت الى عملها، وبقيتُ وحدي بجانبه اترقّبُ نبضه واتدبّر انفاسه .

ويظهر ان رفيقتي افضت بالخبر حالاً الى الطبيب البلجيكي، فجاء على الفور يستفقدني مهنّئاً مطمئناً . فاراحني من هواجسي المرتبكة عليه .

ولما ضئول مفعول البنج، بدأ اميل يشعر بآلام الجراح، وجفاف اللسان . فطلب جرعة ماء يتلمظ بها . فناولته مسكّناً ينعش القلب ويخفّف وطأة الظمأ . فجرعه، فعاودته الاغفاءة . غير انه لم يلبث طويلا حتى فتح عينيه، وادار رأسه نحوي طالباً جرعةً اخرى، فناولته اياها، فرشفها رشفة المنهوم من شدة اواره . وبقي على تلك الحال يوماً كاملاً لا يروي السائل عطشه ولا يُسكن الدواء المه .

وكنت اتعهده بعنايتي دون ان ابرح سريره لحظةً واحدة

اما الشيء الوحيد الذي ادهشني وما برح يدهشني حتى الان، فهو تلك العاطفة الوقّادة التي احسستُ بها نحوه قبل ان اعرفه .

فهل للعاطفة عينٌ اعمق بصراً من الباصرة ؟ وهل للروح شعور

اشدُّ نفاذاً واوسع مدىً من شعور الجسد ؟

. . . . . .

في المساء الاول بدأت حرارة اميل تتصاعد حتى بلغت درجة الاربعين . فشرع يهذي ، وهو يدمع ، كلما ردَّد اسمي واسم مدينته ووطنه . ويقطِّب وجهه ، كلما ذكر احدى المواقع الحربية التي خاضها في افريقيا واوروبا .

وتدنَّت حرارته قبيل الفجر . فأخذ يتطلَّع حوله يميناً وشمالاً . وما ان ابصرني حتى خاطبني قائلاً : اتوسَّل اليكِ يا ملاكَ الرحمة بان تكتبي هذا العنوان : ولفظ اسمي وعنواني ثم اردف : ابرقي لها هكذا :

لم نفترق قطُّ بالروح لأنني كنت ارى دائماً روحكِ ترفرف حولي في المعارك . وهي اليوم تطوف حول فراشي فتدمل جراحي وتهبني الحيويَّة والنشاط . غداً نتقارب جسداً كما نتقارب روحاً .

فسلختُ ورقة بيضاء من دفتر بجيبي ، وتظاهرت بكتابة برقيته ، لاجمَّ عواطفي الملتهبة في حواشي الصدر ، ودموعي المحترقة في مطاوي الاحداق .

ومضيت عنه ، ثم عدت اليه اطمئنه بارسال البرقية التي ولَّجني بها . فانفجرت اساريره ، وطابت نفسه ، فاستسلم للكرى ونام بضع ساعاتٍ نوماً هادئاً مريحاً .

ولما استيقظ بادرني بقوله : تعتقد العجائز ان أحلام الفجر تصدق في معظم الاحيان . ويشاركهن في هذا الاعتقاد بعض علماء النفس . وها اني حلمت في هذا الصباح ان خطيبتي بجانبي . وقد شاهدتها كأنني

في اليقظة لا في الحلم ، تلاعب شعري ، وتحنو عليّ قائلة لي : جئتك بنفسي جواباً فكن مطمئناً .

فهل يحمل اليّ البرق جوابها؟ ويتحفني الغد القريب بطرائف اخبارها ؟

فاجبته : وانا دامعة العين باسمة الثغر بلهجة غير لهجتي الكندية كي لا اسبب له الضرر بمعرفتي فجاءة . ربما صح حلمك وجاءت خطيبتك بنفسها اليك ، فقد تصح الاحلام ، وقد يصبح المستحيل ممكناً باذن الله .

فقال : ربما ثم اردف : يا ليت كلمة ربما ينبجس منها نور الامل وتصبح حقيقة واقعة .

قضى النهار كله وهو بحالة مرضية . وفي اوائل الليل بدأت حرارته ترتفع ، غير انها ظلت متدنية درجتين عن الليلة السابقة . فتمكن ان ينام بدون امتعاض بضع ساعات متوالية . ولما استيقظ ورآني ما ازال بقربه خاطبني دهشاً : هل انت لا تزالين هنا ؟ لماذا لم تذهبي الى فراشك ، وتأخذي قسطك من الراحة والنوم ؟ فانا كما ترين سليم الجراح لا احتاج الى بقائك بجانبي . فاجبته :

لقد عاهدت نفسي ان اسهر على تمريضك . فانت في ذمتي وعهدي حتى تبرأ من جراحك .

فقال : ان عملك هذا يفوق الواجب المحتم على الممرضات ، حتى صرت اعده تضحية منك لا واجباً ، لأنني ارى عنايتك القصوى بي تفوق عناية الام وعطفك يفوق عطفها

فاجبته : انني اعمل كل ذلك من اجلك لأنك انت هنا بين الجرحى الفرنسيين ، غريب عن اهلك ، وعن وطنك واود ان اخفف عنك

بحنوي الزائد ألم غربتك .

فشكر لي حسن صنيعي، غير انه الحف بالطلب كي اذهب حالاً الى النوم، لأرتاح ولو قليلاً من عناء السهر. فنزلت عند مشيئته، وذهبت الى فراشي قبيل السحر. فادر كني النعاس وانا احلم بتهيئة انجع الخطط لاعرّفه بنفسي . ولم ينفك عقلي الباطن عن مواصلة هذا الحلم طيلة رقادي ...

ولما استيقظت ذهبت توّاً اليه، وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً، فرأيت الطبيب البلجيكي هناك ينتزع الضمائد عن جراحه ليكشف عنها، ويجدد تضميدها . فعاونته. ثم سألته عنه، فطمأنني خيراً. ثم وجّه الكلام اليه قائلاً : طب نفساً يا عزيزي، لاضير عليك، فأنت في عهدتي وتحت رعاية ممرضة من افضل الممرضات، ومن اشدهم عطفاً وحناناً . وهي كنديّة من خلّص مواطنيك .

ان هذه البادرة التي فُوجئ بها، جعلته يتطلّع اليّ تطلع المشدوه، ويشخص بي شخوص من يتحرّى امري، ويتقصى خبري في عوالم نفسه ودفائن ذكرياته.

ولما رأى الدمع يترقرق من عينيّ، والكلام يتلجلج في فمي، انتفض قائلا : ربّاه ! هل صحّ حلمي ؟ هل انت ماري ؟ فانحنيت عليه اطوّقه بذراعيّ، ودموعي تعانق دموعه، وأنفاسي الحرّى تصافح انفاسه، حتى كان لنا مشهدٌ من اروع المشاهد تراءى فيه الحب باكمل معانيه، وتجسم فيه العطف بامثل نواحيه .

وكان اول سؤال القاه عليّ وهو دهش بلقائي : كيف تسنّى لي

الوصول اليه ؟ فأجبته : اوصلني اليك الصليب الاحمر، حيث انت الذي تمنّيت عليّ في رسالتك الاخيرة بان اكون في عداد متطوعاته . فنزلت عند رغبتك ساعة نُشر اسمك بين المفقودين . وقد احببت ان اخدم في هذا القطاع، منذ دخل الجيش الحليف ارض فرنسا، لانّ هاتفاً من خوالج النفس كان يعلّلني بلقائك هناك . فصحّت تعلّة النفس وصدقت احلامها، فشكراً لله . وطمأنته عن لفيف اهلهِ وصفوة اصدقائه الذين يرتاح لاستماع اخبارهم . وهو بدوره شرع يقصّ عليّ باقتضابٍ كيف وقع اسيراً في ضواحي فلورنس، وكيف هرب من القطار الحديدي الذي كان يقلّ الاسرى الى معتقلات المانيا . وكيف دخل سويسرا وتوغّل في هضابها وادغالها مشياً على قدميه، حتى بلغ بحيرة ليمان واستقر في قرية صغيرة تُشرف عليها، ولا تبعد عن الحدود الفرنسية الّا قليلا . والمع لي ايضاً كيف قاده الحظ الى بيتٍ منفردٍ عن البيوت، تسكنه عجوز وحدها لا انيس لها فيه، غير كلبها ودجاجها . وعجلتها الحلوب، وحديقتها الصغيرة المفعمة بالشجر المثمر، وببعض الازهار والخضار . وليس لها غير ولدٍ وحيدٍ غادرها الى المكسيك قبل اندلاع الحرب بامد وجيز .

فاحسنت وفادته واحاطته بكامل عطفها وعنايتها، كي لا يشعر بغربته، معتقدة بان كل ماتعمله في سبيله، يعود الى وحيدها المغترب، فيؤتى مثله في ديار مهجره . وطالما سمعها تبتهل اليه تعالى كي يرزق ولدها من يحنو عليه حنوها على النازل في كنفها.

وقال لي ايضاً : انه عاش في منزلها ما يقرب من العام محاطاً بوافر

رعايتها، محفوفاً بجميل برّها وسعة ضيافتها. وهو ما دام حياً لا ينسى فضلها عليه. ويودّ ان يمحضها الشكر ويزوّدها باخباره، عندما يتمكن من ذلك. وانبأني ايضاً انه مذ عرف بدنو الجيش الحليف من معاقل الفوج، جاءها مودعاً، ولجأ الى الجبال يقطعها متخفّياً. فعبر الحدود الفرنسية المكتظة بحافل الالمان، وتجاوز معاقلهم الحصينة باعجوبة ربانية حتى بلغ مدينة بلفور. فانضم فيها الى الجيش الفرنسي، وحارب تحت لوائه في بعض قطاعات الفوج، وفي مدينة كولمار، حيث سقط جريحاً وساعدني القدر بالعثور عليه.

. . . . . .

ولما وصل في حديثه الى المقطع الاخير، انهلّت دموعه عفوا. وتلعثم لسانه عن مواصلة الكلام من شدة التأثر. فتوقّف هنيهة حتى ملك روعه ثم اردف: تأملي يا عزيزتي كيف حقّق الله في لقائنا هذا اسطورة الاجيال السحيقة في الوطن الام. فبعثها من ثنايا آلاف القرون ومن طيّات اغوارها البعيدة مذ بعثك الى كولمار، حيث عثرتِ عليّ مضرّجاً في ارجائها، كما عثرت عشتروت الهة لبناننا القديم، على حبيبها الجريح ادونيس اله اجدادنا القدامى.

لقد حملت صليب الرحمة والرفق في غمار هذه الحرب، لكي تحجبي الدماء المهراقة من اجل دم حبيبك. فسكبتِ على الجراحات بلسماً، وعلى القلوب الدامية برداً. فكنت في الواقع اطهر روحاً، وارق قلباً، واعمق حباً، وارحب صدراً، من الالهة عشتروت التي حوّلت النهر دماً ثأراً لدم حبيبها الذي هُرق على ضفافه.

غابت شمس ذلك النهار، ولم يغب نظره عني. وبقي يتطلّع اليّ بنهم ولا يشبع من التطلع، حتى ادركه النعاس في ساعة متأخرة من الليل.

واستيقظ في الصباح يشكو وخز الم في ساعده الجريح، فحللت رباطه، فلم يسترح. ثم كشفت عنه لاغيّر ضماده. فرأيت الجرح كالحاً ينزّ دماً مكفهراً.

فاستدعيت له الطبيب حالاً. فقال لي بعد معاينته: انه يُرى من جرح جبينه، وبدأ جرح ساقه يلتأم، اما جرح ساعده فبغاية الخطورة. وهو يخشى ان يتفاقم فيضطر الى بتر ذراعه صوناً لحياته. وعالجه بمرهم جديد وقال لي: انه ينتظر الغد ليحسم في امره.

صرف اميل نهاره متوجعاً. وفي اوائل الليل بدأت حرارته ترتفع وآلامه تزداد زيادة كادت تقطع نياط قلبه. فاستعنت بالمخدرات لاخفّف عنه.

ولما ذرّ قرن الصباح خففت الى الطبيب اعلمه بامره. فجاء على الفور يتعهد جرحه. فرآه قد زاد وهجاً ورأى طلائع «الغرغرينا» تتحفز للوثوب اليه. فقرّر في الحال اجراء عملية بتر الساعد، كي لا تتسرب جراثيم «الغرغرينا» الى اوردته فيقضي عليه. وامر بنقله فوراً الى غرفة الجراحة.

فامتقع لوني عند استماعي كلام الطبيب، غير اني تكلّفت الابتسام امامه كي لا يشعر بخطورة جرحه. فلم يفته معرفة ذلك، اذ ابدى لي انه متيقّن خسران يده، وان حياته ايضاً مهدّدة بالخطر.

ولما وُضع على الخوان، قال لي: قبل اجراء العمليّة بثوانٍ معدودة. يظهر ان لا مناص من قطع يدي، فاذا مت فالى كندا جسدي، والى

لبنان يدي .

هكذا ترقد يدي بين بقايا الاجداد ، يكفنها لبنان بثلجه ، ويلفها بترابه. ويضجع جسدي ملفعاً بتراب كندا التي افتداها بدمه، مجاوراً اعز الناس لديه، واشدهم حنواً عليه، حياً كان او ميتاً.

واذا عشت نذهب معاً الى مشرق الشمس — الى الجبل الابيض المتشحة قمه بوشاح الثلج الناصع، وسفوحه ببواسق الارز الخالد .

هناك بين عبير ارزه ، ورکام ثلجه، ونمير مائه، واريج ترابه، اواري يميني — هذا الجزء العزيز الذي سينفصل عني، واشعر منذ الآن بحنينه الصامت للعودة الى احشاء الوطن الام. فليكن له ما يريد.

فطمأنه الطبيب ان لا خطر على حياته . ثم اشار عليّ بالخروج من الغرفة، وهو يكتفي بمساعدة معاونه ورفيقتي. فأصررت على البقاء بجانبه. فسمح لي مكرهاً بذلك .

وبدأ عمليّة البتر. فشعرت كأنه يبتر يميني، ويحزّ عظمي بمبضعه.

لقد كانت حقاً ارهب ساعة في حياتي — تلك الساعة التي شاهدت فيها حبيبي ممدّداً، وهو فاقد الحس من مفعول المخدّر . ويد الجراح تقضم ذراعه بآلة حادة، وهو لا يعي ولا يتألم كأنه جثمان لا روح فيه.

انتهى الجراح من البتر والضماد. فطمأنني بنجاح العملية، فشكرته ، ثم رجوته، بان يحفظ اليد المقطوعة نزولاً عند رغبة صاحبها . فوضعها بإناء يحتوي سائلا يمنعها من العفن، وسلّمها لرفيقتي لأجل استيداعها .

ورافقت خطيبي عندما جيء به الى سريره . فمكثت بجانبه ارعاه بعنايتي واصلّي لاجل شفائه . وهو ما برح يغط غطيطاً . ثم بدأ مفعول

البنج يتقلّص عنه شيئاً فشيئاً. فرأيت عينيه تتفتّحان لحظةً ثم تُغمضان، ورئتيه تتنفسان آهةً ثم تستكنان، ولسانه يتمتم كلمةً ثم يجمد.

ولمّا انقشع عنه البنج، طغى عليه الالم، وفكّ عقدة لسانه. فقال لي بصوت مخنوق: هل بُترت يدي وحُفظت من الضياع لنقدّمها غداً ذبيحةً الى ارز الرب ونواريها في اعالي مشارفه؟ فاجبته: ابشرك بنجاح العمليّة وباحتفاظي بيدك فكن مطمئناً.

. . . . . .

ظل بضعة ايّام يقاسي آلاماً مبرّحة. كنت المسها فيه، من شدة نزوعه الى الصمت، ومن مشاهدتي تقلص عضلات وجهه، بين الفينة والفينة، على الرغم من مظاهر الرجولة ورباطة الجأش التي كان يتلبّس بها. ولم يخرج عن صمته الّا عندما بدأ يتماثل للشفاء. فزايله التجهم وشرع يكلمني اولاً بلفتات عينيه المشعتين بانوار الحب اللتين كانتا تغليان بالدموع المتأججة من لهيب قلبه، وسعير عواطفه. ثم خاطبني قائلا: لا شيء في هذا الكون يعادل الحب: انه خميرة الخالق في المخلوق، وينبوعه السرمدي الذي يروي ظمأ القلب، وينعش خمائل النفس. وهو في جوهره الهيّ النزعة، يغمر الكون باسره، ويغرس في ارجائه مختلف بذور الحياة التي ينبثق منها شعاع الحب الالهي الخالد في هذا الوجود.

وشعاع هذا الحب الذي غمرك بفيض من نوره، هو الذي مهّد امامك كل حالك وشائك، وجعلك تهتدين اليّ في مذود دمي، كما اهتدى المجوس بواسطة هذا الشعاع الى مذود الطفل الالهي. فقدّموا له من الهدايا اجل ما كانوا يحملون. ثم انصرفوا عمن جاء بالخلاص والرجاء الصالح

لبني البشر .

اما انتِ فكان مجيئك من اقاصي الارض الى ساحة كولمار، مجيء مخلص، يحمل رجاء لجريح مقطوع الرجاء، ويبعث فيه حياة بعد اذ اوشك أن يودع الحياة . ولم تحملي له ذلك فحسب، بل حملت له ايضاً خير ما تملكين من الهبات، قلباً مملوءاً بالعطف ونفساً مفعمة بالحب، ورعاية مشمولة بالحنان، ومهجة تجاوزت حدود التضحية فتهالكت على تضحية الذات في سبيل من تحب، دون ان تنصرفي عنه كما انصرف المجوس عن الطفل المخلص .. في حين انكِ كنت له الواهبة كل شيء، الخلاص من الموت، الخلاص من الالم، الخلاص من عذاب الوحدة ووحشة الفراق .

فانا لكِ ما حييت شاكر مخلص وفي .

فاجبته : لا شكر على الواجب . ولا على دوام الاخلاص والوفاء لانهما هيكل الحب وروحه . وكلانا ابدعنا الله روحاً وهيكلا للحب .

. . . .

في اول فترة النقاهة، كانت احاديثنا تدور في مجملها على الذكريات. فكنت اذكّره ويذكرني اشهى حوادث غرامنا منذ بدأ هذا الغرام يتغلغل في قلبينا الصغيرين كما تتغلغل العطور في اكمام الورود.

فلم نترك في دفائن الحافظة شاردة من شوارد الحب دون ان نعيدها الى الحياة الفاظاً تختلج في اللسان، وانباضاً تنتفض في الجنان.

. . .

العودة الى باريس

شعر اميل بالعرج في اول خطوة تمكن ان يخطوها في غرفته. فطلب في الحال نقله الى باريس، لعله يرى فيها نطاسياً ماهراً يعيد ساقه الى سابق حالها. فأستجيب طلبه وأذن لي ايضاً بمرافقته والبقاء بجانبه.

كان يوماً صافي الاديم يوم سرنا في سيارات الصليب الاحمر الى مدينة النور. او بالاحرى الى مدينة الظلام والنور. حيث كان الظلام الحالك يجثم فوقها ويخيّم عليها طوال سنى الحرب. فلا مشاعل تتلألأ في ساحاتها وشوارعها، الا مشاعل الفكر الفرنسي الملتهب بسعير الحرية والتحرر. ولا اضواء تتسرب من مشارف انديتها، ونوافذ بيوتها، الا اضواء الذهن البشري المتوقد بانوار العلم والثقافة.

فكانت باريس حالكة في الجسد نيّرة في الروح.

فنزلنا غبّ وصولنا اليها، في احد مصحاتها المخصّصة للجيش. وهي بناية قديمة الطراز في منظرها الخارجي، مستحدثة الهندسة في بعض اقسامها الداخلية. تحوطها حديقة مكتظة بالشجر الباسق، وموشاة بطرائف الورود والرياحين.

ظل اميل طيلة مكوثنا في باريس يعرض نفسه لمشاهير الاطباء. لعل معجزة من معجزات الطب تحلّ عليه، فتشفيه من العرج. فلم يؤته

الطب هذه المعجزة. فتسرّب اليأس الى قلبه. فقال لي مرة: ألم يكفني خسران يميني حتى بُليت فوقها بالعرج. ألم اكن في طليعة الشباب حسناً، وفي مقدمتهم حيوية، فأمسيت في مؤخرتهم؟ فأجبته: لم تزل في نظر مواطنيك في طليعة شبابهم، وفي عين حبيبتك في طليعة طلائعهم. فالعرج لا يؤثر في جمال الروح، ولا يحدّ من حيويتها وطموحها. وفقدان اليمين، لا يقلّل من حصافة العقل، ومكارم الخلق. فانت روح وعقل وخلق، لا كتل من لحم، وقطع من عظام.

فقال: سأظل بعينك جميلاً وقوياً ما دمت تنظرين الي بعين الحب لا بعين الجسد. فعين الحب تستخرج من الدمامة جمالاً ومن العاهة كمالاً.

لقد غمرته بكل ما في من موارد العطف والحب حتى جعلته يعود الى مرحه، ناسياً محنة عرجه وفقدان يمينه.

وكنا في شباب كل نهار مشرق الوجه، نؤم حديقة المصح، ونجلس ساعة في حر الشمس، متربعين على الاعشاب النابتة حول واحات الورد والقرنفل. فنستحم بكوثر النور، ونطهر انفاسنا باطهر العطور. ثم نتنقل الى الظل، فنستلقي على الارض، تحت بواسق الاشجار، منصتين الى تغاريد طيرها، وحفيف امّات اغصانها المشرقة بولائدها الضاحكة في وجه الشمس.

في هذه الحديقة طالما كنا نستعرض حياتنا. فنتحدث عن ماضينا الحافل بذكرياتنا المطويّة، ونتيمّن في مستقبلنا الطافح باملنا المنشود.

وكانت اخبار الحرب وذكرياتها، اشأم الاخبار واوجع الذكريات التي كنا نتبادلها.

فلن انسى ما حييت ، كيف تقلّص وجه اميل وتشنّجت اعصابه وانكمشت روحه ، عندما بدأ يحدثني عن الحرب ، وعما تنتجه من وخيم العواقب التي تبدّل من اوضاع النفس ، وتقتل فيها كل عطف انساني وحنان بشري : قال :

منذ البدء بُلي الجنس البشري بداء الحرب — هذا الداء المتأصل في جذور الاحياء ، لم يزل حتى الان مجهول الدواء . عجزت الموهبة الانسانية عن شفائه ، على الرغم مما انزل عليها من وحي الاديان والشرائع . وهو يزداد في تقدّم العلم استفحالاً وفي انتشار الحضارة اضطراماً .

فوحشيّة الحروب البدائية القائمة على الظفر والناب ، وادوات الصوان واقواس النشّاب . لا تعدّ فظاعتها جزءاً من الف جزء اذا قيست بوحشية الحرب الحاضرة المسلحة باحدث معدات العلم . كأن العلم الذي اكتسبه الانسان في خلال العصور ، لم يكن في الواقع الا توغلاً في جحيم التوحش ، لا تدرّجاً في سلم التحضر .

فالانسان في غمرة الحرب ، يفقد شعوره كانسان ، مهما تكن الانسانية مجسمة فيه ، ويمسي حيواناً لا كالحيوان الذي يستكن عن الافتراس بعد الشبع ، فهو لا يستكنّ عن الفتك ما دان له الفتك ، ولا يشبع من الافتراس وفي مقدوره الافتراس .

لقد بلوت نفسيتي ونفسيّات المتحاربين ، فرأيتها تتحجر في احتدام المعارك ، وتفقد كل شعور وعطف ، حتى يبدو فيها ارق الناس شعوراً بلا شعور ، واعطفهم قلباً بلا قلب . فيتحول المرء بكليته الى آلة مسيّرة من آلات التدمير والقتل . لا يحمل في جوفه غير قلب من نار ، ونفسية من جحيم .

لقد خضت المعارك الضارية في شمالي افريقيا وجنوبي ايطاليا ، وانا على رأس فرقةٍ من فرق الدبابات ، كنت في غضونها اشبه ببركانٍ هائج يقذف الحمم يميناً وشمالاً ، ممعناً في الهدم و« القتل » والدّوس ، دون مبالاةٍ في تقويض المنازل الآهلة بالعجائز والاطفال . او في قتل المحاربين وغير المحاربين . او في وطء الجرحى والمحتضرين .

فلم اشعر وانا غائص في بحر من النجيع ، الا بازدياد التعطّش للدم ، حتى انني كنت كلما تراكمت الجثث امامي ، وتفاقمت آهات الجرحى من حولي ، واشتد تساقط القنابل على دبابتي ، ازداد استبسالاً في النضال واستئساداً في القتل واستعداداً لمواصلة الكفاح من اجل النصر .

فكنت عند تأزم المعارك ، لايهمني ان الوي العنان لدبابتي بلا وازعٍ على صدور الجرحى وفوق الاشلاء واقحاف الجماجم . كأنني الويها على كثبان من الرمل ، لا على رجالٍ مثلي من لحم ودم .

ففي وطيس المعامع لا يشعر المحارب بقلبٍ يشفق ، او ضمير يبكت . او وجدان يعنف .

اما اليوم فكلما لاحت في خاطري اهوال المواقع ، تزهق فيها الوف الارواح متساقطة وهي في مطلع ربيعها ، تساقط اوراق الخريف ، يحزّ في الالم ، وارتاع كلما تخيلتها مخضّبة تنتفض بدمائها . وتتملكني الرعشة كلما تمثلت جرائم القتل التي اقترفتها بنفسي في حومة الوغى . مع اني كنت مثل كل المحاربين اقتل واحسب القتل في ميدان الحرب بطولة لا جريمة ومجداً لا عاراً .

وما الحرب في الواقع الا جريمة الجرائم ، لأنها وليدة الاطماع ، سوّغها دماغ بشري محنون لا دماغ موزون .

ان لساني لعاجز حقاً عن وصف ما شاهدته من ضروب الاهوال والفظائع، منذ موقعة العلمين في مصر، الى مواقع شمالي افريقيا وايطاليا. فاوسع اللغات مجالاً، لا تقوى بمفرداتها على التعبير عن مدى تلك الاهوال، وارحب الناس خيالاً، لا يبلغ بتصوراته آفاق تلك الفظائع.

في ضواحي الثغر التونسي بيزرت، خضت معركةً بالسلاح الابيض. لا تزال صلصلة حرابها المخضبة بالدم تتجلجل في اذني وتتراءى في عيني، وعويل صرعاها وحشرجتهم، يتجاوب صداها في نفسي، ويتزايد يوماً فيوماً فازداد مرارة والماً.

نازلت جنود المحور وانا احمل حربةً في يميني وخنجراً في شمالي، متلاحماً صدراً بصدرٍ وساعداً بساعد.

فكنت تارةً افرّ من بينهم قافزاً قفزات النمر وطوراً اكرّ عليهم كرور الاسد طاعناً طعنات الموت

صرعت ما لا يقلّ عن عشرين نفساً في تلك الموقعة القصيرة الاجل. بينهم جندي ايطالي في غرّة الفتوة. هاجمني بحربة ملوّثة بدم الرفاق. فثار ثائري عليه، وبادرته بطعنةٍ، ثم سددت نحوه الاخرى وانا اسمعه يتوسل اليّ قائلاً: ارحمني انا وحيد ارملة وأبٌ لطفلين في الاقطة. فلم اكن ساعتئذ بشرياً يرحم. فقضيت عليه وهو يستغيثني بقلبٍ مقروح وصوتٍ مجروح. ويستعطفني بدمه المتفجّر وطرفه الساهي المتحجر.

لم تدم مجزرة الحراب الا قليلاً، غير انها كانت تزخر بالضحايا. فاكرهنا العدو فيها على التراجع، تاركاً في ارجائها بعض اعتدته وقتلاه. ولما تم لنا النصر اخذت ابحث مع الرفاق، عمن وقع قتيلاً او جريحاً من

جنودنا . فقادني البحث الى جثة الايطالي الذي نشدني الرحمة والعفو في ساعةٍ يفقد فيها اوفر الناس رحمة وعفواً ، كل شعورٍ بالرحمة والعفو .

فألفيت جثمانه ممدّداً تحت جذع شجرةٍ يتصبب منه الدم. وهو لا يزال يحملق بعينيه المتفتحتين الجامدتين كأنه ما برح حباً يستغيثني . فهززته فلم يتنفس ، وجسست نبضه فلم ينبض ، فتحققت وفاته . غير انني خشيته ميتاً من مجرد التطلع في عينيه المشرئبتين اليّ ، ولم اختشه قطّ وهو حي. فابتعدت عنه وانا اتخيل امّه العجوز واقفة بجانبه ترهقني بشدة عويلها ، وتقذفني بسهام لعناتها. وحوله صغيراه يدبان على صدره وهما يسبحان بدمه ، ويسدّان جوعهما بتلقف نجيعه .

هذا مشهد من مئات المشاهد الفاجعة التي لمستها بنفسي في المعامع. ناهيك عن مشهد المدن والقرى التي درستها الحرب على بكرة ابيها . وابادت آلاف المزارع والاطيان وقضت فيها على كل نبتٍ وعلى كل حياة.

في مدينة كسينو الايطالية استعرت نار المعارك الضارية في قلب الساحات والشوارع ، وفي باحات الكنائس وداخل المخادع والاديار ، وبين ركام المنازل المتداعية ، وخفايا اقبيتها ومخابئ دهاليزها .

كان النصر في خلالها يتراوح بيننا وبين الاعداء . فكثنا عدة اشهرٍ نتصارع صراعاً عنيفاً ، ونتقارع بين كرٍّ وفر ، وهجوم وتراجع . فدخلنا المدينة عنوةً مراراً على اجساد الضحايا ، وتركناها مكرهين مراراً على تلك الاجساد . ولم نثبت فيها الا بعد ان تقوّضت بكاملها ولم يبق فيها حجر على حجر .

ان انس لا انس اول مرة دخلنا اليها تحت وابل رشاش المدافع

وازيز الطائرات، وهزيم قنابلها. فلم نكد نمعن في احيائها مستروحين النصر، حتى فوجئنا بجنود المحور ينسأون علينا بحرابهم من مخابىء البيوت المهدّمة ومن بين انقاضها، كما تنسل الضواري من اوجارها والافاعي من اجحارها.

وكانت ساعة ويل وثبور. اختلط فيها الحابل بالنابل، حتى اننا لم نعد ندري كيف نوجه ضرباتنا، ونتوقى الوثبات الواثبة علينا من مختلف المكامن. فأحاط بنا العدو من كل جانب، يزخ علينا بالقنابل زخ البرد، ويشعل فتائل الالغام فتتفجر من حولنا تفجر البراكين وتحصد جنودنا حصداً.

وكنا كلما لوينا على مكان نتقي به الموت، نداهم بكمين من فرق المحور ينقض علينا بحرابه فنقابله بالمثل متخذين من جثث الرفاق الذين صرعوا على غرّة متاريس نتلقى بها طعنات المهاجمين، ثم نستدركهم على الاثر بطعناتنا، فلم ندع مجالاً للقول:

قتلوا اخاك وثأره لم يقتل

فامسينا في تلك الساعة الرهيبة نحن وأعدائنا اكلب من الذئاب ننهش بعضنا بالحراب لا بالانياب، نهشاً متواصلاً، ونتلاحم بأحدّ الخناجر وأمضاها تلاحم جنون مطبق لا هوادة فيه بغير فناء أحد الفريقين.

فزرعنا الارض جثثاً وروياناها دماً ولم نكف ولم نتورع عن مواصلة الطعن والضرب.

رجالٌ استفحل الشر بيننا وبينهم الى اقصى حدوده، ولم نرهم قبل الواقعة ولم يرونا. ولم نعرفهم ولم يعرفونا، ولا ثأر لهم علينا، وليس لنا عليهم

ثأر ، سوى انهم من جنود المحور ونحن من جنود الحلفاء .
كدنا نتفانى على شفار الحراب ، ونحن نكافح مستقتلين في اراقة دمائنا وابادة بعضنا بعضاً . دون ان يحمل احد منا لاحد حقداً سابقاً . غير ان سوداء الحرب اطبقت على أدمغتنا ، وهي فوق سوداء الاحقاد . وجنون الحراب المغموسة بالدم اجهز عليها . وهو فوق كل جنون .

لم نفكر ونحن في شرّة الطعان الا بالتسابق على تسديد الضربات القاضية على كلّ منّا . دون ان نتساءل : لماذا نتلاعب بأرواحنا كل هذا التلاعب ! ونتقاذف بها على رؤوس الاسنّة كل هذا التقاذف .

من قادنا الى الموت ؟ وزج بنا في جحيم هذه المهالك ؟ أليست فكرة المدى الحيوي المرتكزة على الجشع والاستثمار اضرمت نار الحرب واودت بنا وبملايين الخلق الى الهلاك والدمار ؟

فئة مصابة بجنون الاطماع والكبرياء قدحت زناد الشر فقذفت العالم بجحيمه . فتناحر وتذابح ، وخرّب ودمّر ، وحرّق وفظّع ، ولم يبق ولم يذر دون ان يفطن بانه مسخرٌ للتذابح ، او ان يستشعر بانه مسيّرٌ الى الفناء .

فالى متى يظل الناس كالقطعان ينقادون انقياداً اعمى الى المجازر ؟

نجوت من تلك المجزرة ولا أدري كيف نجوت . ولا كيف تسنى لي العود الى خنادقنا . غير اني خسرت فيها رفاقاً من اشجع الرفاق ، ومن اصفاهم خلقاً ، وأصلبهم عوداً . بينهم شاب كان لي اوفى رفيق واحبّ صديق . كان بجانبي يكافح الاعداء كفاح الاسود . فسقط صريعاً امامي وهو يستنجدني . فلبيّته في الحال . وادركت طاعنه بضربة أودت بحياته . وتقلّبت عليّ الخصوم ، فتواريت من امامهم ، دون ان اتمكن من انقاذ

هذا الرفيق الذي كنت اعزّه كنفسي .

خرجت من هذه الحرب قاتلاً مقتولاً . قاتلاً ارواحاً ازهقتها بيدي ، واحمل عبء اجرامها في عنقي . ومقتولاً هماً وكمداً على خيرة الرفاق الذين قضوا نحبهم في مختلف الميادين .

وظل اميل يردّد على مسمعي « انا قاتل ومقتول » حتى خنقته العبرات ، وشلّت لسانه وطأة الانفعالات النفسية التي استأثرت باصغريه ، وضيّقت عليه مجاري التنفس .

فتوقف مكرهاً عن مواصلة حديثه ، وسرد أوجع ذكرياته .

اما انا فبادرت في الحال اعلّله باطيب الآمال والاماني ، واذكّره بكل ما تصبو اليه نفسه ، لأبعده عن التفكير في مآسي الحرب .

وكنت كلما جاء على ذكرها امامي ، استغرق في حديث الحب ، وفي وصف اختلاج الربيع المشرق الذي يرمز كله الى الحب . فاشغلهُ بالتأمل في حصحصة البراعم ، وتنوّر الكمائم ، وتنفّس الاماليد الخضر ، وتراقصها على هينمة النسيم ورفرفة الاجنحة ، وتماوجها على اضواء الشمس ، ومبارق خيوطها الملوّنة المبعثرة بين حنايا الاغصان وخلايا الاوراق ، والمتلألئة على صفحات المياه وعلى قطراتها الجاثمة حول مباسم الزهر ومنابت العشب .

لماذا لا يفتر ثغرنا كما افتر ثغر الربيع ونبتسم كما يبتسم الزهر ونضحك كما تضحك الشمس ! ونزقزق كما تزقزق العصافير ؟

لماذا لا نتحرر من تحمل اعباء الهموم والمآسي كما يتحرر الربيع من كل لفح ونفح ؟ فهو زاهٍ زاهر لا يحمل وزر اعاصير الشتاء ، ولا هم لواعج الصيف ، ولا سموم الخريف .

أليس من الحكمة ان نعيش ليومنا كما يعيش الربيع ليومه. فنسدل حجباً كثيفة على ماضينا المثقل بالخطوب . ونكل أمر غدنا الى الله نستلهمه الخير مستسلمين .

. . .

بمثل هـذه الاحاديث كنت اسري عنه بعض الشيء . وكانت اخبار الانتصارات المتوالية التي كان يحرزها جيشنا الحليف، تساعدني ايضاً على اخماد ثورة نفسه وتخفيف لوعة آلامها .

سقوط فينا وبرلين وتوقيع الهدنة

لم يفتأ اميل يتقصّى اخبار الحرب بشغف متزايد. فالجرائد اليومية كانت شغله الشاغل في صباحه ومسائه. والمذياع كان اليفه الدائم يهرع اليه في غالب الأوقات، ويقلّب عقربه بين مختلف العواصم والمدن، بغية الاطلاع على كل شاردة وواردة من جديد الاخبار والحوادث. فكان يُفاجأ كل يوم بانتصار جديد ينعش قلبه ... الجيش الاحمر يتوغل في شرقي المانيا ويكتسح مدنها اكتساحاً هائلاً. والحلفاء يهاجمونها من الغرب ويحطّمون جيشها امام نهر الرين تحطيماً فظيعاً.

وفي اليوم الثالث عشر من شهر نيسان سنة ١٩٤٥ اعلن الروس سقوط فينا عاصمة النمسا ودخول جيوشهم المظفرة اليها. ثم بدأوا بهجومهم الحاسم على برلين في ١٦ منه، بينما كان الجيش الحليف تتوالى انتصاراته على الجبهة الغربية بسرعة مدهشة. وانتحر هتلر في ٣٠ نيسان، وسقطت برلين باجمعها في ٢ ايار. ثم انتهت كل مقاومة في ايطاليا وشمالي النمسا، وفي جنوبي المانيا وشماليها ايضاً.

هذه الانتصارات الخاطفة اثلجت صدر اميل، وجعلته يشعر بنشوة لم يشعر بمثلها خلال سنوات الحرب. لأنه كان يعتبر أنها ستؤدي حتماً الى وقف القتال ونجاة العالم من أروع وأفظع مجزرة في تاريخه.

وهكذا كان . فقد وقعت الهدنة بين الحلفاء والمانيا في الساعة الثانية من صباح الاثنين الواقع في ٧ ايار سنة ١٩٤٥ في مدينة ريمس الفرنسية . فاستسلم الريخ الجبّار بدون قيدٍ ولا شرط . وعاد السلام والرجاء الى بني البشر .

كانت باريس طوال شهر نيسان في عرس دائم . تستقبل نصراً اثر نصر، وتقيم احتفالاً تلو احتفال. لم نسمع فيها غير اجراسٍ تقرع، واهازيج تشق عنان السماء . كل ما فيها كان يترنح بشراً وحبوراً . الساحات والشوارع، والمسارح والملاهي والمنازل، كلها كانت تعج بالعازفين والراقصين، وتتلألأ بساطع الانوار ومختلف الزينات والاعلام المنتصبة على شرفاتها وابراجها .

وكان اعظم ايامها يوم الهدنة — يوم القت النازية سلاحها واستسلمت جيوشها استسلاماً تاماً لجيوش الحلفاء . . .

فتكشفت فيها الوجوه المقنّعة بالسواد، والنفوس المكبّلة بأغلال الحرب . فأشرقت كلها اشراقة الشمس، وتلألأت بالالوان الزاهية تلألؤ الربيع . وعادت باريس مدينة النور ترفل بمطارف البهجة وتلألأ النور .

الى لبنان

منذ خمدت نار الحرب بدأنا نتهيأ للسفر الى لبنان. لأن اميل كان في قمة من قممه يحلم بدفن يمينه ، لترقد هانئة تحت سمائه الصافية مكفنة بترابه المضمخ بأريج الأرز. فتم له ما اراد في منتصف تموز حيث أذن لنا بمقعدين في طيارة من طيارات الجيش الفرنسي المتوجهة شطر الجزائر فبيروت. فطرنا بها على بركات الله. نحمل يداً مقطوعة وبعض الالبسة.

ولم تقلّ الطائرة سوى اربعة ضبّاط غيرنا. نزل منهم واحد في أجله، واستمرّ الباقون برفقتنا الى بيروت. وكنا جد مرتاحين طوال السفرة من عاصمة النور الى قاعدة الجبل الابيض. فلم نصطدم بالزوابع ولا بالضباب ، ولا برياح تنفح او تلفح.

ولمّا لاحت امامنا جبال لبنان ، وأوديته المهيبة ، وقراه المخضوضرة المبعثرة بين السفوح والتلال، الفيت اميل يرمقها من نافذة الطائرة بشغف عظيم ، ويتطلعها تطلّع فنّان مشدوه بمفاتنها، مندفع الى رسمها منكبّ على نقل مختلف مشاهدها وتلاوينها

اجل كان اميل يبدو بنظرته الغريبة امام تلك المشاهد كأنه فنّان حقاً ، يحدّق اليها بطرف لايملّ ويتتبّع جزئياتها وتفاصيلها، ومختلف

مناظرها واوضاعها بعين لا تشبع.

غير انه كان فناناً مثالياً من اولئك الصوفيين الذين يرسمون ما تستوعبه ابصارهم وبصائرهم على لوحات قلوبهم والبابهم، لا على لوحات من الشاش او الورق. ويضفون عليها من معدن ارواحهم، اصباغاً، ومن مرهف احاسيسهم الواناً، لا اصباغاً من اصباغ المادة، ولا الواناً من الوانها.

هبطنا مطار بيروت قرب الظهيرة. وبقينا هناك بضع دقائق لا غير لأجل استلام حقائبنا والتأشير على اوراق هويتنا. ثم انتقلنا بالسيارة الى فندق سان جورج القائم على لسان صغير ممتدّ في البحر، يصاول امواجه بصخوره الناتئة ويقارع أنواءه بجلاميد من الاسمنت المكدسة حوله، على جوانب الماء.

ومنذ بلغنا الفندق، وقفنا قليلاً على شرفته المطلة على البحر الابيض المتوسط، وعلى جزء من المدينة، وبعض انحاء الساحل والجبل. فأخذ اميل يملي انظاره بمشاهدها الخلابة مقابلاً طرفه في تلك الربوع الممتدة امامه — في ذلك الساحل الضيق الآهل بالسكان الذي يغسل اقدامه البحر — الى الهضبات الفساح المتماوجة بمطارف القرى والمزارع التي يغمرها الغمام — الى رؤوس القمم الشوامخ التي يلفها السحاب.

بتنا ليلة واحدة في الفندق. وفي الصباح الباكر اقلتنا السيارة الى ارز الرب — الى قمة ضهر القضيب الحارسة تلك الاشجار المقدسة التي لم يزدها تعاقب القرون الا صموداً على الدهر، وتدفقاً في الحيوية والتجدد.

فاجتزنا شوارع بيروت المؤدية الى الطريق الساحلية الشمالية، وهي طريق تحاذي البحر الى ما وراء الحدود اللبنانية. تكتنفها الرياض والخمائل وبساتين الموز والليمون، والمنازل القروية المبعثرة على جوانبها وعلى الهضبات المحيطة بها.

وكان سائق السيارة من اولئك القرويين الجبليين، بسيط المظهر، متين البنيان، يتكلم معنا بين الآونة والاخرى بلهجة يبدو فيها عنصرا القوة والصراحة ممتزجين بعنصري الشمم واللين. وكان يعلمنا باسماء القرى والامكنة التي كنا نعبرها.

هذا نهر بيروت — وهذه انطلياس المشهورة ببرتقالها الفاخر — وهذا نهر الكلب الواهب عاصمة لبنان اعذب نميره — وهذه اثاره القديمة والحديثة المحفورة على اخاديد صخوره الصلبة من عهد الفينيقيين الى هذا العهد — وهذا ثغر جونية الجميل — وهذه بكركي الجاثمة على تلك الربوة الشامخة بالقصر البطريركي الماروني — وهذا نهر ابراهيم — وهذا واديه الرهيب وادي الآله المتألم أدونيس. وهذه جبيل «بيبلوس» المدينة الفينيقية المقدسة مدينة الكنوز الأثرية الخالدة على الدهر — وهذه شقيقتها البترون بطارفها وتالدها — وهذه شكا ومعاملها المشهورة لصنع الاسمنت.

وهذه طريق الجبل المؤدية الى الأرز. فلوينا عليها تاركين طريق الساحل التي تدغدغها نسمات الجبل والبحر، وتتلاقى على صعيدها بعد اغتراب طويل مياه المالح ومياه الانهار والجداول، فتتعانقان ثم تتساكنان في اكناف الخضم.

ومضت بنا السيارة صُعداً بين تلال جرداء، وقمم مخضوضرة، في طريق كثيرة الالتواء والتعرّج. فلم نلبث بضع دقائق حتى بلغنا هضبة منبسطة بين جوانب الجبال، تكسوها اشجار الزيتون، وتتخللها بعض القرى العامرة. فقال السائق: هذه هي الكورة الغنيّة بزيتونها وزيتها — هذه قصبتها بلدة اميون — وهذه كسبا — وهذه طريق الجبال الشوامخ — فشرعنا نلفّها ونطويها كما تلفّها جوارح الطير، وتطويها سحائب الغمام. وكنا كلّما طوينا جبلاً نشاهد على اقفية رأسه ترتع اقدام جبل آخر اسمى ذروة واكثر شموخاً. فظللنا نصعد حتى بلغنا قرية حدث الجبّة المطلة على غابة الارز، وعلى أروع ما خلق الله من جمال وجلال، في بلد الجمال والجلال.

وهي قائمة على رأس جبل عظيم خلناه قبل الوصول اليه ينطح السماء بمفرقيه، فاذا به موطيء اقدام جبل شاهق يبدو كأنه لاصق بالزرقاء برؤوسه المسنّنة المكلّلة بالأكاليل الماسيّة المتماوجة بألوان خيوط الشمس وازرقاق السماء.

وسرنا بعد الحدث بطريق تقرب الى الاستواء حتى مدينة المقدّمين مسقط رأس جبران الخالد بفنّه وأدبه. فلم نقطع ميلاً حتى قال السائق: هذا هو قصر الديمان المقر الصيفي لبطريرك لبنان — يتعالى بقبابه فوق شفير مهيب من اشفار الوادي المقدّس. ويحتوي على هيكل ينبض بقدسية الفن اللبناني، كما ينبض معبد سكستين في الفاتيكان بروحه المحيية وباعجوبته الدينونة الخالدة.

وهذه بلدة حصرون الشامخة بدورها وحورها — وهذا هو الوادي

المقدّس ـ وادي قاديشا الرهيب ـ وهذا نهره المتفجر من بطن غابة الارز ـ وهذا شلاله الصاخب المندفع اندفاع الزوابع الهوج من علو شاهق. يزيغ البصر، الى وادٍ متناه في العمق، لا يدرك آخره الواقف على شفيره. وهذه بشرّي ربيبة جبران ـ وهذا قبره الجاثم في منسكٍ قديم في قلب هذا الجبل الزاهي بموقعه الرائع وبسنديانه القديم.

وهذه هي الطريق المؤدية الى غابة الارز والى شواهق الجبال التي تحرسها، وترد عنها غوائل العواصف والتيارات الجارفة في فصل الشتاء.

فشرعنا نجتازها مصعّدين في جبل يندر فيه الشجر، على كثرة ما فيه من مساقط الماء. الى ان بلغنا منبسطا بين الجبال تقوم على جنباته بعض الفنادق والمنازل، ويحضن في صدره الغابة التاريخية ـ غابة ارز الرب. وهي مسوّرة بحائط حجري اخنى عليه الزمان، تلاصقه من الناحية الشمالية الشرقية كنيسة حديثة البناء، تقاربها ثكنة عسكرية لفرق التزلج.

فترجلنا من السيارة ووقفنا هنيهةً في ساحة الثكنة المشرفة على الغابة والمرتفعة قليلا عنها. فشرعنا نسرّح طرفنا فيها، مأخوذين بروعتها وسحرها. وكان اميل يدقق فيها النظر وهو مغرورق الدمع. والسائق يدلّنا باصبعه على اعظم شجراتها قائلا: هذه انضر واضخم شجرة في الغابة على رغم آلاف الاعوام التي طوتها. يلف جذعها اربعة عشر رجلا ـ وهذه القائمة في قلب الارز متناهية الحجم ايضاً ـ يقال إن الشاعر الفرنسي لامرتين استظل بظلها وحفر اسمه عليها. وهناك ارزةٌ مجوّفة الجذع قديمة العهد تُعرف بارزة الناسك، اتخذها احد القساوسة له منسكاً،

وتعبّد في جوفها طوال حياته ... وهناك وهناك ...

لم يسمح لنا الوقت ان نتغلغل بين تلك الاشجار التي قدّسها البشر، وخلّدها سفر التكوين، فلم نتبيّن اسرار قوتها واسباب نموّها الدائم على تعاقب القرون. ولم نتفيأ ظلالها ونستنشق عبق كثب عبيرها. فالى لقاء ثانٍ ان شاء الله.

عدنا الى السيّارة نطلب دليلا يرافقنا الى القمة المنتصبة فوق الغابة، مصحوباً بمعوله ورفشه.

فجاءنا السائق بفتى فارع دون العشرين، جوري الوجه، متين الساعد، ممشوق القد. فطلبنا منه بعض اغصان الارز، فأتانا بها. ثم ارتقينا معاً الى تلك القمة نجتاز جبلا اجرد الاّ من بعض فسائل النبات. وهو مكسوٌ بطبقة كثيفة من التراب، تخفي تحتها جابرة الصخور المرتكز عليها. وتسرح في منعطفاته وحناياه قطعانٌ من الماعز الفيناها تقفز جائية رائحة تتلقّف المرعى بين حزونه.

والفينا الرعاة يتنقّلون بين تلك الاكمات، وهم يعزفون على شباباتهم المفعمة بالحنو والعطف، ويتناشدون « المواويل » التي كنا نسمع بعضها يتعالى صاخباً كصفير الرياح، وبعضها ينطلق عذباً ناعماً كهينمة النسيم. وكانت اصداء الجبال تردّدها مقطعاً مقطعاً، ومهاوي الاودية تتناقلها نغماً نغماً، فتزيدها روعةً وتغمرها حنواً.

ان تلك الاصوات والنغمات التي سمعناها ونحن نصعّد في ذلك الجبل، هي اصوات ونغمات غريبة، لم تصدر من افواه الرعاة فحسب، بل هي تزاوج اصوات الطبيعة باصوات البشر ... هي امتزاج مواويلهم الصاخبة بمواويل رياح الجبال واصدائها. وائتلاف عزيف شبّاباتهم الرائقة

بعزيف رائق النسيم، وحفيف الايك

تسلقنا القمّة قبل ان تبلغ الشمس قبة الفلك. وهي تعلو عن سطح البحر اكثر من ثلاثة آلاف متر، ولا يعلو عليها في لبنان الا القرنة السوداء التي لم نتمكن من بلوغها لبعدها عن الطريق المعبّد، ولوعورة مسلكها. فغادرنا السيّارة بعد ان سلّمنا الدليل الصندوقة الصغيرة التي تحضن يد اميل الطاهرة. فمضى بها وبعموله ورفشه. وخطونا وراءه نتحسس تلك الاماكن، لنتخير موضعاً ملائماً نواريها فيه، مشرفاً على الغابة المقدسة، وعلى سلاسل الجبال اللبنانية المتلاحقة من مكسر الموج الى مرمى الثلج.

فانتقى اميل فرجة صغيرة في وسط القمّة ما برح يغمرها الثلج لانعزالها عن مهب الرياح بسبب انخفاضها قليلاً عما حولها من الارض. وهي تطلّ على وجهي لبنان — على بحره الابيض وبقاعه الخصبة — وعلى سلسلتيه العظيمتين المقابلة الغرب والمواجهة الشرق.

فاخذ الدليل يجرف عنها ركام الثلج، ثم بدأ يحفر قبراً في تلك الارض المتحجّرة مستعيناً بعموله ورفشه. وكان اميل يساعده بين الفينة والفينة. والسائق يهيء له بعض الحجارة اللازمة لجوانب الرمس.

ولما انتهى كل شيء.. وضع اميل بنفسه الصندوقة في قلب الحفرة، وغمرها «بشلوخ» الارز. ثم تناول قبضة من التراب ونثرها فوقها، ثم حفن حفنة من الثلج ورشّها عليها وهو يقول: هنا اودعت جزءاً من جسدي وقبساً من روحي، في ارض تحضن بقايا الآباء والاجداد، وتدرّ خيرها على بنيهم واحفادهم. فهنيئاً لهذا الجزء الذي يرقد بسلام في

اطهر بقعةٍ في لبنان، مكفناً بارزه، ملفعاً باقدس ترابه، مسربلاً بانصع ثلجه.

وهيل الثرى على الحفرة حتى استوت بالأرض التي تجاورها. ثم غمرت باكوام الثلج ورُفع فوق جانبها الغربيّ شاهدٌ مصفح من الصخر اودعه اميل هذه العبارة التي نقشها برأس جارحته في قلب الحجر.

هنا فوق مشارف الارز ترقد بين مهاجر لبناني ينتصب شاهدها علماً خفاقاً مستعراً بنار الوجد والحنين — وجد المغتربين اللبنانيين وحنينهم الدائم الى وطنهم لبنان.

. . . . . .

انجز اميل عمله، ثم انتزع منديله وملأه تراباً من جوانب الحفرة. وقبل ان نغادرها، وقفنا حولها بضع دقائق صامتين نودعها خلاصة عطفنا، ونمطرها وابل حنوّنا.

. . .

وانثنينا الى السيارة، فهبطت بنا الى الأرز — الى فندق الشفق القائم على ذروة جبل يحمل في صدره مغارة قاديشا التي يتفجّر من جوفها النهر الذي يحمل هذا الاسم. وهي مغارة كما قال لنا صاحب الفندق من اعجب مغاور الكون، ومن اكثرها روعةً وفتنةً للنظر، بوفرة مافيها من اللوحات الطبيعية الحافلة باجمل التماثيل والمشاهد. وقد ابدعتها على كرّ العصور انامل الماء لا انامل الفنانين والمثّالين.

فلم نتمكن من مشاهدتها بسبب ضيق الوقت. لأننا لم نكد نتناول الغداء حتى كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر. وكان علينا ان نصل الى مطار بيروت قبل الساعة السادسة مساءً، موعد

رجوع الطائرة الى باريس .

فانحدرت بنا السيارة تنهب الارض نهباً الى المطار . فأقتعدنا جبّارة الجوّ التي حلّقت بنا متوجهة شطر مدينة النور . فلم نر من بيروت غير النزر اليسير . وقد الفيناها بموقعها الطبيعي وبمجموعها الجامع بين حضارة الشرق وثقافة الغرب ، مدينة ساحرة على رغم ضيق شوارعها وعدم اتساقها .

الى مدينتنا المحبوبة مونتريال

بعد بضعة ايام من وصولنا الى باريس، اقلتنا طائرة من طيارات الجيش الاميركي الى لندن، ومنها الى مدينتنا المحبوبة مونتريال. فارتبطنا فيها برباط الزواج المقدس، في حفلةٍ بسيطةٍ لم يحضرها غير اقرب الاهل. وها نحن ننعم الان في عشنا الزوجي بحياةٍ هانئةٍ مطمئنة، بعد تلك الحياة الرهيبة التي قضيناها في ميادين الحرب. لم نشاهد فيها غير تراكم الاهوال والفظائع.

. . . . . .

لقد بدأ اميل يكتب مذكراته عن فواجع هذه الحرب وهو يأمل نشرها على الملأ قريباً.

وطالما صرّح لي باعتقاده: ان رجال السياسة الذين القيت على عواتقهم مقدّرات الكون. وهم على ما هم عليه من تنازع الاهواء، وتباين الاهداف والمصالح، لا يتمكنون بمؤتمرات دولية، ولا بمحالفات عسكرية، او بتأليف جامعة امم، ان يحجبوا دماء الخلق بقدر ما تحجبها اقلام المفكرين الذين خاضوا غمار الحرب، وشهدوا بنفوسهم وقائعها الهائلة الزاخرة بملايين الضحايا البشرية، وآلاف المدن والقرى المهدّمة. وبلايين الاموال التي هُدرت هدراً في ساحات الوغى، من افواه الدبابات

والقانصات والمدرّعات وما شاكلها من آلات الحرب وعددها ومعدّاتها.

فلو بُذل بعض هذا المال في سبيل الانعاش البشري في مختلف حقوله العلمية والادبية والاقتصادية، لانتصر العالم حتماً على الجهل والعوز وعلى اخطر الاوبئة والامراض المستعصية التي تفتك به.

ولكن ويالَلأسف فالعالم لا يزال مسيّراً برجال السياسة والمطامع لا برجال العلم والأدب والروح الخلاّق للمثالية التقدّمية الصحيحة.

انتهت في ٢٠ كانون الاول سنة ١٩٤٦

بقلم

توفيق حسن ابي نادر الشرتوني

فهرست

	صفحة
اهداء الكتاب	
الوداع	٥
في ميدان الحرب	١٢
سقوط باريس	٣٥
عبر الاوقيانس	٣٨
في بريطانيا العظمى	٤٥
في فرنسا	٥٠
في باريس	٥٥
في جبهة الفوج	٥٩
الى كولمار	٧٥
العودة الى باريس	٨٨
سقوط فيناو برلين وتوقيع الهدنة	٩٨
الى لبنان	١٠٠
الى مدينتنا المحبوبة مونتريال	١٠٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

وقع بعض الاخطاء المطبعية التي لا تخفى على القارىء اللبيب

892.73 Sh53dA
الشرتوني، توفيق، حسن
دموع الوفاء بين الاشلاء والدماء
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038170

American University of Beirut

892.73
Sh53dA
c.2

General Library

892.78
Sh562dA
c.2